أولادنا

بقلم : محمد عبد الغنى حسن



دار المعارف

مـون فليت

أولادنا

١٦



بقلم: محمد عبد الغنى حسن

الطبعة الخامسة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.



١

قرية مون فليت

تقع قرية « مون فليت » على مسافة لا تبعُد كثيراً عن البحر ، إنها على بُعْد نصف ميل من الشاطئ ، وفى الوقت نفسه تقع على الضفّة اليمنى — أو الضفة الغربية لنهر « فليت » .

وليس نهرُ « فليت » من تلك الأنهار الكبيرة، الواسعة ما بين الضفتين ، ولكنه نُهَيرٌ صغير ، يضيق مجراه ضيقاً شديداً ، وهو يمر ببيوت القرية الصغيرة الهادئة ، على حين يأخذ فى الاتساع حينما يجتاز حدودَ القرية ، حيث ينتهى إلى غِياضٍ ملحية ، ثم يختفى بعد ذلك مجرى ذلك النهر الصغير ، حيث يبلغ فى نهاية المطاف إلى بحيرة واسعة .

وليست هذه البحيرة صالحةً لشيء مما تصلُح له البحيراتُ عادةً ، إلا أنها صارت مَوْطِناً لأصنافٍ من طيور البحر ، وخاصة ذلك الطائر المعروف بمالك الحزين ، كما كانت مكاناً ملائماً لأنواعٍ من المحار والأصداف البحرية . وعلى العموم كانت أشبه شيء بتلك المستنقعات التي تكثر في بلاد الهند .

ولا أزال أذكر — حينما كنت في أيام طفولتي — أنني كنت أظنّ أنّ هذه القرية سميت باسم « مون فليت » لأن القمر « The Moon » في ليلةٍ ساكنةٍ من ليالي الصيف ، أو الشتاء القارس ، قد عكس ضَوْءه الباهر ، وأرسل سناه اللامع على وجه تلك البحيرة . ولكنني علمت فيما بعد أن كلمة « مون » ليست هي بمعنى القمر ، كما يتبادر إلى ذهن السامع ، وكما تبادر إلى ذهني أوّل الأمر ، ولكنها اختصار لكلمة « موهون » ، التي هي لقبُ أسرةٍ عظيمة ، كانت على جانب كبير من الثراء والمجد ، وكان أفرادُها يوماً سادةَ الأرض ، ونبلاء تلك البقعة من البلاد .

ولعلك — أيها القارئ الكريم — تحبّ أن تعرف اسمي ، فاعلم أنني أدْعَى « چون ترنشارد » . ولقد كنت أبلغُ من العمر خمسةَ عشرَ عاماً حين بدأتْ هذه القصة من حياتي في الظهور .

وكنت في ذلك الحين غلاماً يتيمَ الأبوين ، فقد حرَمَتني الأقدارُ أبي وأمي ، قبل أن تبدأ هذه القصة ببضعٍ من السنين . ولكنني لم أعدَم

أن أجد لنفسي – بعد موت أبوىّ – مُسْتَقَرًّا ومُقاماً فى بيت خالتى « المس أرنولد » .

والحقّ أنّ القَدَر الذى حرَمَنى عطف الوالدين ، لم يبخل علىّ بعطف هذه الخالة ، على طريقتها الخاصّة ، وإن كانت صرامتها وشدتها فى المعاملة وكثرة تدقيقها فى الأمور لم تَدعْ لى سبيلاً إلى أن أمنحها حبى ، وأهبَ لها قلبى . . . .

ولا مَفَرَّ من أن أتحدث أوّل الأمر عن ذلك المساء من أمسية الخريف فى سنة ١٧٥٧ . لقد كان ذلك فى أخريَات شهر أكتوبر ، وإن كنت لا أذكر تاريخ اليوم نفسه على وجه التحديد ، وكل ما أذكره أننى جلست فى غرفة الاستقبال الأمامية الصغيرة ، بعد أن فرَغت من تناول الشاى ، لأسلى النفس ببعض المطالعات . ولا أزال أذكر تلك المجموعة من الكتب التى كانت تحتويها مكتبة خالتى . لقد كان فيها نسخةٌ من الكتاب المقدّس ، وبعض كتبٍ فى الأدعية والمواعظ . ولعل أثْمَنَ مافى هذه المجموعة – بالنسبة إلى غلام ناشئ مثلى – كان ذلك الكتاب الذى أعارنى إياه المستر « جليبى » واعظ القرية ومعلم أطفالها . لقد كان كتاباً من كتب القِصَص المملوءة بالمغامرات وعناصر التّشْويق المثيرة للاهتمام . وكان اسمُ هذا الكتاب « حكايات ألف ليلة وليلة » . . .

وقد بدأ الضوء الخافت يحملنى حملاً على أنْ أترك القراءة ، كما كانت

لـذَعات البرد فى هذه الغرفة، التى لم تشعل فيها خالتى نار المدفأة ــ لأنها لم تكن تسمح بإيقاد النار للتدفئة إلا فى شهر نوفمبر ــ سبباً آخر فى حملى على تركْ الغرفة والقراءة معاً . . . .

ولعلّ الرائحةَ الزَّنخة للشّحم المذاب، التى كانت تنبعثُ من الشموع المضاءة فى المطبخ، والتى كانت تتصاعد إلى أنفى فتكاد تَزْكمه ــ كانت سبباً يُضاف إلى ما سبق من أسباب . . .

ولقد بلغتُ فى قراءة الكتاب موضعاً ضاقت له أنفاسى ، وانقبض له صدرى ، وجعلنى أتمنى أن أترُك القراءة مخافةَ ما كنت أتوقعه من الأحداث لو أننى مضيتُ فى القصّة على وجهى . . .

لقد كان ذلك الموضع من « ألف ليلة وليلة » حيث قصّة المصباح العجيب، حينما ألقى الساحر حجراً كبيراً ليسد به فتحةَ الحجرة التى تحت الأرض ، حتى يحبسَ بذلك الفتى « علاء الدين » فى الظلام ، لأنه أبى أن يُعطىَ الساحرَ المصباحَ إلا إذا تأكد أنه قد صَعد إلى وجه الأرض ثانيةً فى سلامٍ وأمانٍ .

ولقد ذكّرتنى هذه القصّة بواحد من تلك الأحلام المفْزِعة الرهيبة، حيث يرى الواحد منّا فى المنام أنه محبوسٌ فى غرفةٍ صغيرة محكمة الأبواب، مُغْلقَةَ النوافذ، وأنّ حوائط هذه الغرفة مُطبقَةٌ عليه إطباقاً تامًّا لا يستطيع الخلاص منه . وهكذا أوحت إلىّ هذه القصة المزعجة ذكريات مخيفةً

تمثّلتْ أشباحها وصُورُها أمامى فى إحدى الحوادث التى مرّت بى بعد ذلك .

ولهذا كله ألقَيْتُ الكتابَ من يدى ، وتوقّفت عن القراءة ، وآثرت أن أخرج إلى الشارع لأتخلّص مما كان يُساورُنى من مخاوف الموضع الذى بلغتْه من قصة علاء الدين .

لم يكن هذا الشارع التعيس على أحسن أحواله ، ومما لا شكّ فيه أنه كان إلى الأمس غير البعيد أجملَ وألطفَ مما كان عليه اليوم .

وكانت بيوت قرية « مون فليت » مبعثَرةً هنا وهناك على امتداد نصف ميل من جانبى الطريق العام ، وكان هناك طابعٌ من الحزن يخيمُ على تلك البيوت المتناثرة ، والتى تضمّ من السكان ما لا يبلغ المائتين عدداً .

ولم يعنَ واحدٌ من أهل « مون فليت » بتجديد بيته ، ولم يكن عندهم من وسيلة لإصلاح البيوت المتداعية إلا هدمها . ولذلك كانت تبدو البيوت كئيبة ، كما كانت الحدائق بجُدرانها المتهدّمة ، وأسوارها المتداعية ، تزيد فى وحشة المنظر وكآبته . وحتى الكثير من البيوت القائمة بدا عليها أنها لا تحتمل البقاء طويلا .

فى اللحظة التى خرجت فيها إلى الشارع ، كانت الشمس قد مالت إلى الغروب ، وكان الظلام غير كثيف ، ولكنه كان كافياً لأن يحجبَ عن عينى رؤية الطرف الآخر من القرية الممتدّ ناحية البحر . وقد أعان

على ظلام الجو ذلك الدخان المنتشر في الهواء والذى كان يتصاعد من احتراق بعض الحشائش والأعشاب التى كانت رائحتها تَصعَدُ إلى الأنوف. وكانت لذعات هواء الخريف تذكّر بنيران المدافئ اللامعة ، وبليالى الشتاء الطويلة المؤذنة بالحلول عما قريب .

وكان السكون يلف المكان كله فى أثوابه الهادئة ، فلم أسمع حساً ولا حركة فى تلك العتْمة الموحشة الساجية ، إلا دقاتِ مطرقةٍ كانت تتوالى على مسمعى من نغم رتيب . ولقد اتجهت إلى ناحية الصوت لأرى ماذا كان يحدث هناك ، فإن أصوات المطارق لم تألفها قرية «مون فليت» منذ كان أهلها لا صناعة لهم غير صيد الأسماك . . .

ولشدّ ما كانت دهشتى حين رأيتُ عند مصدر الصوت « راتسى » نحاتَ القبور وحارسَ مقبرة مون فليت ، وهو واقف تحت سقيفة من الخشب تتجه فتحتها نحو الطريق ، وفى يده المطرقة والإزميل ! وشظايا أحجار المقبرة تتناثر من حوله ، ونَقَرات المطرقة تتتابع فى نغمها الرتيب ، فتقطع سكون المساء صارخةً : تك ، تك ، تك !

لقد كان راتسى بنّاءً قبل أن يحترف مهنة صيد الأسماك ، وكانت أدوات البناء والنحت طيّعة فى يديه الماهرتين ، ولذلك كان أهل القرية يلجأون إليه لينحت لموتاهم شواهد القبور . . .

وما إنْ وقعت عينى على راتسى وهو مقبلٌ على عمله حتى استندتُ

إلى باب سقيفته، وأخذت أراقبه والإزميل فى يده ، والضوء الخافت ينبعث من خلال مصباح ضئيل، وما كاد يرفع بصرَه ليرانى حتى ابتدرنى بالكلام قائلا :

ــ تعال يا چون ! إذا لم يكن لديك ما تعمله ، فتعال وأمسك لى المصباح ، وقرِّبه منى . فلم يبق أمامى غيرُ نصف ساعة لإنجاز هذه المهمة .

ولم أجد مفرًّا من أن أجيب راتسى إلى طلبه، فقد كان دائماً لطيفاً معى ، مُحسناً إلىّ ، وكثيراً ما أعارنى إزميله لأصنع به مراكبَ صغيرةً من الخشب . ولهذا دخلتُ فى السقيفة وأمسكت المصباح بيدى على الهيئة التى أرادها . وكثيراً ما كانت تطرف عيناه حينما يرى قشور الحجارة تتطاير قريبةً من عينى .

وقد أتم راتسى نحت العبارات المنقوشة على شاهد المقبرة حينما دخلتُ عليه ، وأخذ بعد ذلك ينحت رسماً لسفينتين صغيرتين فى أعلى الحجر . وقد بدت صورة السفن أمام عينى حينذاك وكأنها قطعة من الفن الجميل ، ولكننى الآن أدرك تمام الإدراك عكس ما كنت أتصوره فى ذلك الزمن البعيد !

ولم يستطع الزمن أن يغيّر شيئاً من معالم ذلك الحجر المنحوت ، فيُمكنُك اليوم أن تراه فى فِناء الكنيسة بقرية مونفليت ، ويمكنك أن

تقرأ العبارة المنقوشة عليه ، ولو أن تقلّبَ الليل والنها قد أحال لونه ، فلم يكن فى مثل ذلك الوضوح الذى رأيته عليه فى تلك الليلة . وكان الحجرُ يحمل هذه العبارة التالية :

« ذكرى مقدسة
للفتى داڤيد بلوك الذى
قتل فى سنٍّ الخامسةَ عشرةَ
بطلقة نارية من السفينة "إليكتور"
فى ٢١ يونية سنة ١٧٥٧ »

الحقُّ أن ألسنة أهل القرية كلّها أخذت تتحدث بقصة ذلك المصرع الأليم الذى لقيه الفتى داڤيد ، حتى كان يَرْويها كلُّ فم .

وكان داڤيد هو الابنَ الوحيد لـ « إلزيڤير بلوك » الذى كان يدير حانة فى طرف قرية مون فليت باسم « هواى نوت » .

ولعلك تريد أن تعرف الظروف التى لقى فيها الفتى جون هذه النهاية المحزنة وهو لم يَزَلْ بعدُ فى نضارة الفتوة ومطالع الشباب ؟

لقد كان مع جماعة من المهربين على ظهر إحدى سفن التهريب حينما فاجأتهم سفينة حكومية مطاردة فى إحدىِ الليالى من شهو يونية . ويقول الناس فى أخبارهم التى يروونها عن ذلك الحادث إن السيد « ماسكيو » مأمور الضبطية القضائية الذى كان يسكن قصر الحاكم فى مون فليت ،

هو الذى دلّ جنودَ خفر السواحل على سفينة المهرّبين ، وأنه على كل حال كان على ظهر السفينة الحكومية « إليكتور » حينما أحاطت بسفينة التهريب من كل جانب ، وضيّقت عليها الخناق .

ولم يكن بُدٌّ — حين اقتربت السفينتان بعضهما من بَعْض — من أن تقوم معركةٌ بين المطاردين والمهرّبين ، وفى خلال الصراع الحامى أخرج ماسكيو مسدسه ، وأطلق منه قذيفة على وجه الفتى داڤيد ، وهو منه على هدَف قريب .

ومما يؤسف عليه أنّ تلك المعركة البحرية لم تَنْجلِ إلا عن مقتل غلام فى مثل عمر الزهر ، أما بقية المهربين فقد قبض عليهم رجال المطاردة وساقُوهم مكبلين فى الأغلال اثنين اثنين ، وطافوا بهم خلالَ القرية؛ حيث كان الرجالُ ينظرون إليهم وهم على عتَبات بيوتهم ، أو يمشون خلفهم لتشييعهم وهم فى طريقهم إلى سجن « دورشستر » الكئيب ، بينما كان النّساء يُبدين الأسف ، مشاركةً منهن لشعور زوجات المعتقلين .

وبينما كان المهرّبون فى طريقهم إلى السجن مع حرّاسهم الأشداء ؛ كان جُثمان الفتى داڤيد مُلقًى على ظهر السفينة ، بعد أن دفع حياته ثمناً غالياً .

* * *

وقف راتسى وهو متراجع إلى الوراء قليلا أمام حجر المقبرة الذى

ينحته ، ليلقى نظرة على رسم العَلَم الذى كان ينقُشُه على سفينة المطاردة ، ثم أخذ يُلقى من فمه هذه العبارات :

— « لقد كان عملا وحشيًّا أن تُطلَقَ النارُ على مثل ذلك الغلام اليافع : وما أشد العذابَ والعقابَ الذى يُنتظر أن يلاقى بقية المهربِّين الذين سيقوا إلى السجن ، فقد سمعت أن المحامى « إمبسون » يقول : « إن الإعدام سيكون مصير ثلاثة من هؤلاء المساكين . . وما زلتُ أذكر من ثلاثين عاماً كيف حكمَ القضاء على أربعة مهربين بالموت فى حادث كهذا الحادث . . . أوه ! ما علينا ! سأقضى يوم الاثنين المقبل فى تلوين السفينتين بالصّبغ الأسْود ، أما العلم فسأطليه باللون الأحمر . . . والآن يا بنى ! لقد ساعدتنى بحملكَ المصباحَ على أن أنجز نحت شاهد القبر الليلة ، فتعال معى إلى حانة "هواى نوت" ، وهناك سأقضى بعض الوقت فى الحديث مع "إلزيفير" ، الذى يحتاج — بعد أن ساءه الزمان بمصرع ولده — إلى بعض القلوب المخلصة ، يتسلىَّ بكلماتها الرحيمة ، وعواطفها الرقيقة على إساءات الأيام . . . »

لقد كنتُ فى ذلك الحين غلاماً يافعاً ، ولكن معانى الرجولة أخذت تدبُّ فى نفسى . . فقد حسبْتُ حينذاك أن من دواعى الشرف العظيم أن أدعى إلى حانة « هواى نوت » ، فإن مثل تلك الدعوة قد نقلتنى لحظةً إلى مصافِّ الرجال . .

آه ! أيتها الطفولة الجميلة الحلوة ! ما أكثر شوقنا ونحن فى رحابك إلى أن نتخلص منك إلى رحاب الرجولة ، ولكننا لا نلبث حين تمضى بنا عجلة العمر أن نتمنى العودة إلى رحابك من جديد ! !

ولكنَّ سرورى بتلك الدعوة الكريمة لم يدُم طويلا بغير مايشُوبهُ من عوامل كادت تبدِّدهُ وتُحيله إلى خوف شديد ... فلقد خفت حتى أن أفكر فيما عسى أن تقوله لى خالتى « چين » لو أنها علمت أننى كنتُ فى حانة « هواى نوت » . وفوق هذا ما كنت أظننى أقوَى على أن أرى آثار الحزن المنطبعة على وجه « إلزيڤير » منذ مصرع ولده داڤيد . . .

* * *

ولم يكن اسم « هواى نوت » هو الاسمَ الحقيقىَّ لهذه الحانة! لقد كان اسمها فى الحقيقة «حانة موهون» ، لأن أسرة موهون- كما ذكرتُ لكم- كانت تمتلك القريةَ بأسرها ، ولكن الحظوظ خانت هذه الأسرة كما خانت حظ قرية مون فليت كلِّها معهم .

ولقد بقيت أطلالُ قصورهم وأنقاضُ دورهم التى هدمتها الأيامَ مُطلَّةً فى لونها الصخرى الأدكن ، على رءوس الهضبة وسفوحها المشرفة على قرية مون فليت . وبقيتْ دُورُ الضيافة عندهم على منتصف الطريق العام مهجورةً لا تطرُقها قدم ، ولا يَفد عليها وافد . . .

وكان شعارهم وشارة أسرتهم يتوِّج كل شىء فى القرية ، من الكنيسة

إلى الحانة . . . ومن عجبٍ أن كل أثر حمل شارتهم يوماً ما قد حمل معهم شارةَ الفناء . . . .

ولم تكن الدرع التى تحمل شعارَ « الموهون » شيئاً أكثرَ من قطعة من المعدن أو الفضة قد نقش على أحد وجهيها حرف « y » فى نقش كبير أسود اللون .

ولم يكن صعباً على أىِّ إنسان أن يلاحظ شارة أسرة الموهون منحوتةً على قصر الحاكم ، أو على أحجار الكنيسة ونقوشها الخشبية ، أو على عشرات من بيوت القرية . ولقد كانت مرسومةً على لوحة من الخشب فوق باب الحانة . . .

واقترن حرف y دائماً بأسرة الموهون على مدى أميال من أطراف قرية مون فليت . وسمِّيت هذه الحانة بحانة « y واى » ، أو حانة « why » هواى. ولكن أحد المتظرفين من سادة الأرض السابقين أسماها على سبيل التفكهة حانة why not « هواى نوت » فلصق بها هذا الاسم منذ ذلك الحين . .

* * *

كاد قلبى يخرُج من فمى حينما رفع راتسى مزْلاجَ الباب وأخذنى فى يده إلى غرفة الاستقبال فى الحانة ، لقد كانت غرفةً وطيئةً فرشت أرضها بالرمل ، ولم يكن فيها مصباحٌ يضيئها ، أو ضوءٌ يبدد ظلامها ، إلا ألسنةً من اللهب تتصاعد من نار المدفأة التى كان وقودها بعض أخشاب بحرية ترمى بشَرَرٍ أزرقَ .



وفى أركان الحجرة تناثرت مناضدُ ، وأديرت حول الجدران مقاعدُ خشبيةٌ . وهناك على نضد قريب من المدخنة جلس الزيفير بلوك يدخن فى « بيبته » الطويلة ، ولا يكاد يرفع عينيه من فوق نار المدفأة . . وكان الزيفير رجلا فى الخمسين من عمره ، وقد بدأت تظهر فى رأسه بعض آثار المشيب ، أما وجهه العريض المنتظم الملامح فكان لا يخلو من سمات الرحمة ، على حين لم أرَ فيما رأيتُ من وجوه الناس مثلَ جبهته اللطيفة الجميلة . . .

وكان بناؤه القوى الضخم يدل على القوة . والحق أن أهل الإقليم كلَّه كانوا يروون حكاياتٍ كثيرةً عن شجاعته ، كما كانوا يتندرون بالحديث عن مروءته واحتماله .

والحق أن أسرة بلوك كانوا أصحاب هذه الحانة لعدد من السنين ، وكانت تنتقل ميراثاً إلى الابن عن أبيه ، ولكن أم الزيفير لم تكن من صميم البلاد ، ولكنها كانت هولندية ، أو من تلك البلاد التى كانت تسمى بالأراضى المنخفضة ، ومن هنا كان الزيفير يحمل هذا الاسم الهولندى ، كما كان يتكلم اللغة الهولندية التى كانت يوما ما لسان والدته...

ولم يكن كثيرٌ من الناس يعرفون الكثير عن الزيفير ، فقد كان أكثرُ أموره خافياً على أهل ذلك الإقليم ، وكثيراً ما تعجب الناسُ وتساءلوا عما إذا كان يستطيع أن يعيش على ذلك الدخل القليل الضئيل الذى تجلبه

له الخانة . ومع ذلك كله لم يبدُ عليه فى يوم من الأيام أنه احتاج إلى المال ، أو أن يده ضاقت بالنقود . . .

وإذا كان يحلو للناس من وقت إلى آخر أن يتحدثوا عن شجاعته ، أو يقصُّوا الأخبار عن بطولته ، فإنهم لم يَغْفلُوا فى الوقت نفسه عن الإعانات الخفية التى كان يمد بها الأرامل والمرضى من غير أن يعرفوا مصدرها . ولكنهم كانوا يعلمون أن الرجل لا يعطى متظاهراً ، ولا يساعد للحديث عنه أو للتباهى بالعطاء ، وكثيراً ما كتم صمتُه الطويلُ كثيرا من خيراته التى كانت تدلُّ عليه . .

وما كدنا نقترب من إلزيڤير وهو فى مجلسه قريباً من المدفأة ، حتى تحول بنظره إلينا ، ثم خصَّنى بنظرة فيها كلُّ معانى الغضب ، قائلاً لراتسى فى حدة :

ــ ما الذى يريده هذا الطفل من مجيئه إلى هنا ؟

وأسرع راتسى بالرد قائلاً :

ــ إن جون ليس طفلاً ! إنه فى مثل عمر ولدك داڤيد ! وقد جاء معى الآن بعد أن فرغ من مساعدتى فى نقش شاهد القبر الذى أصنعه له . لقد انتهى الآن صنعُ ذلك اللوح التذكارى المقدس . ولم يبق إلا طلاءُ السفينتين اللتين صورتهما على الحجر ، وسيتم ذلك فى مَساء يوم الاثنين . حيث سننصب الحجر فى فناء الكنيسة ليستطيع ولدُك المسكين أن يرقدَ فى سلام !

ولقد كنت أظن أن هذه الكلمات ستهدئ من إلزيفير ، ولكنه رد قائلاً :

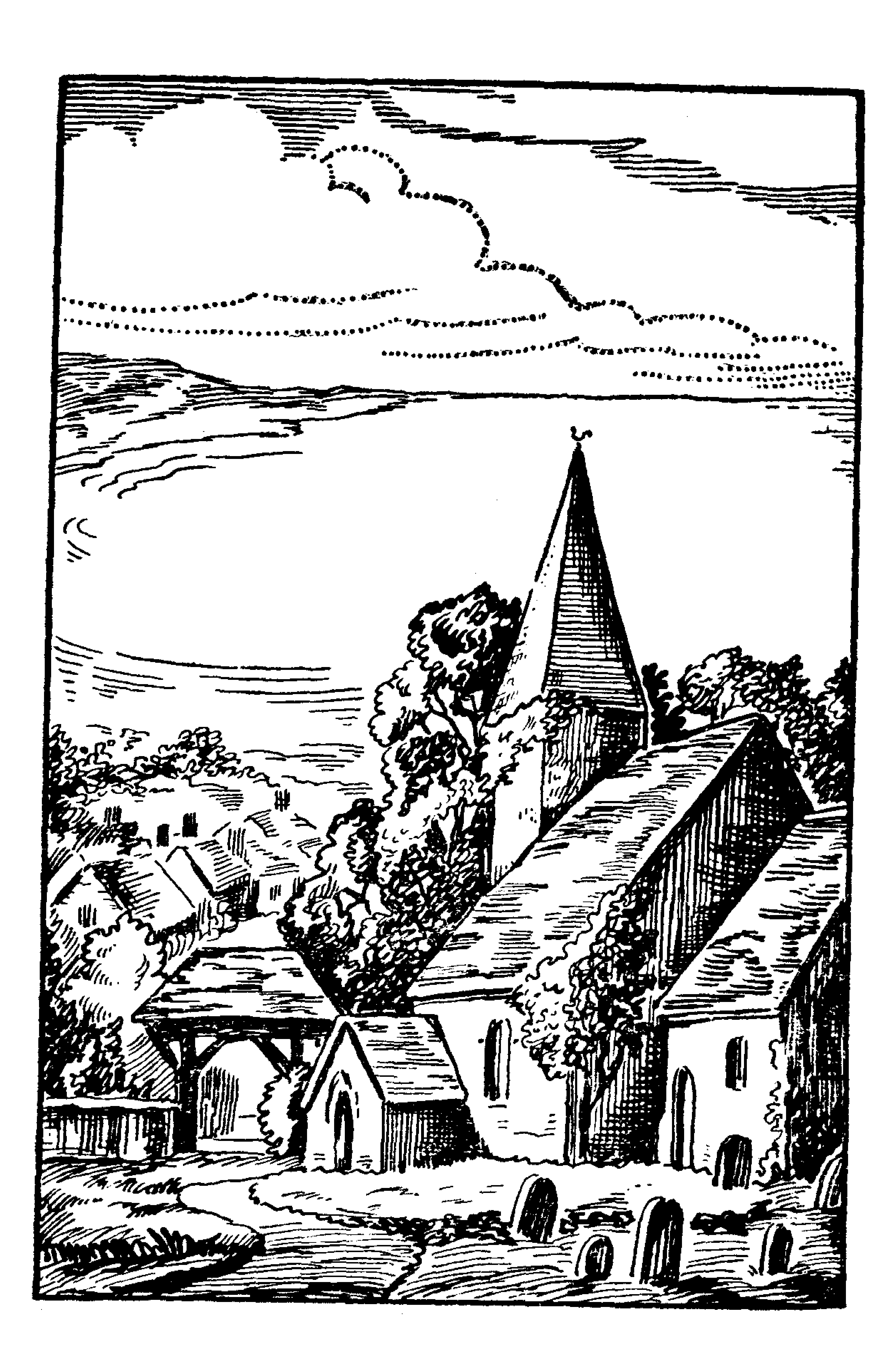
ــ نعم ! سيرقُد داڤيد فى سلام ، ولكن هؤلاء الذين أوصلوه إلى هذه النهاية لن يَنْعموا بالسلام أبداً حين يأتى وقتهم ، وقد يكون ذلك أسرعَ ممَّا يتصورون !

واستمر إلزيفير فى كلامه كأنما يتحدث إلى نفسه، ولقد كنتُ أعلم أنه يقصد بهذا الكلام « ماسكيو » ، وتذكرت أن بعضَ الناس قد نصح ماسكيو ــ أو أنذره ــ بأنه من الخير له والإبقاء على حياته أن يبتعد عن طريق إلزيفير ، فإن أحداً من الناس لا يستطيعُ أن يعرف على وجه التحقيق ماذا يمكن أن يفعله الرجل اليائسُ القنوط .

ومع هذا كلِّه فقد تقابل الرجلان : الواترُ والموتورُ ، والقاتل وأبو القتيل ، نعم ! تقابلا منذ ذلك الحادث ذات يوم فى شارع القرية ، وكان يُخشى أن ينتهز إلزيفير هذا اللقاء لفرصة الانتقام من قاتل ولده ، ولكنَّ شرَّ ما فى ذلك اللقاء كان نظرةً عابسة متجهمة رماها لحظُ الوالد الحزين !

وجلس الرجال فى الحانة يتحدثون ، وكانت تتخلل أحاديثهم بعض ألعاب من النَّرْد ، وامتد بهم الوقت إلى أن نظر إلىَّ إلزيفير نظرة لا تخلو من معانى العطف ، وهو يقول :

ــ أيها الصبى ! لقد حان وقت عودتك إلى بيتك ، وكثيراً ما يتحدث



الناس أن « بلاك بيرد » يخرج فى الليالى الأولى من فصل الشتاء ويسير فى الطرقات ، وأن بعضهم قابله وجهاً لوجه فى الطريق بين هذا المكان وبين منزلك !

ولقد تبين لى أن الزيفير أراد أن يتخلص منى بهذه الوسيلة ، فلم أشأ أنا أن أكون ثقيلاً على الرَّجلين، ولا متطفلا عليهما . فحييتهما مودِّعاً وأخذتُ طريقى إلى البيت ، وأسلمت قدمىَّ إلى الجرى منذ أن غادرتُ الحانة . ولا أدرى لماذا جريت هكذا ، فكثيراً ما كان راتسى يؤكد لى أنه لا يُحتمَلُ أن يلقى الإنسان « بلاك بيرد » إلا إذا اضطر إلى أن يجتاز فناء الكنيسة فى ظلام الليل البهيم . .

* * *

ولم يكن « بلاك بيرد » هذا غيرَ رجل من أسرة موهون ، وقد مات منذ قرن من الزمان ، ودُفن فى قبوة تحت أرض الكنيسة ، حيث كانت ترقد بعض الأجساد من أفراد أسرته .

ولم يستطع بلاك بيرد أن يظفر بالراحة فى قبره ، ولم يستقر له جَنْبٌ تحت الثرى وفى مضجعه الأخير .

وقد علَّل قوم ذلك بأنه كان دائماً يبحث عن كنز ضائع ، كما علله آخرون بأنه كان فى حياته مجرماً إلى أبعد الحدود ولهذا كان جزاؤه أن لا تُكتب له الراحةُ فى عالم القبور . . .

وساد الاعتقاد بين الناس أن بلاك بيرد يمكن أن يظهر فى ليالى الشتاء الحالكة السَّواد ، وهو يحفر فى فناء المقابر باحثاً عن جوهرته المفقودة . وأكد الذين يتظاهرون بالمعرفة منهم أن بلاك بيرد كان أطولَ الناس قامةً ، وأن لحيته شديدةُ السواد كثيفةُ الشعر ، وأن وجهه نحاسيُّ اللون ! وعيناه تقدحان بالشر والشرر ، وأن الذين تقضى عليهم الظروف بمقابلته والنظر إلى عينيه لا يسلمون من موت محقق قريب .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان هناك من أهل قرية مون فليت مَنْ يفضلون أن يقطعوا عشرة أميال كاملة مشياً على أقدامهم ، بدلا من أن يقتربوا من فناء الكنيسة حينما يجللها الظلام ، مخافة أن تُوقعهم الأقدار فى لقاء ذلك الرجل الذى لا يهدأ تحت القبور .

وقد أكَّدت حادثة رهيبة هذا الاعتقاد السائد بين أهل قرية مون فليت ، فلقد عثروا ذات يوم ، وفى صباح من أصبحة الصيف على جثمان « كراكى جونس » وهو ملْقى على الكلأ الأخضر فى فناء الكنيسة ، واعتقد الناس جميعاً أن سوء حظه رماه فى لقاء بلاك بيرد فى ظلام الليلة التى انجلى صباحها عن ذلك الحادث العجيب .

ولما كان مستر « جليني » يعرف من الأمور والوقائع أكثر مما يعرفه أى رجل آخر فى القرية ، فقد أكد لى أن بلاك بيرد لم يكن غيرَ الضابط « چون موهون » الذى مات منذ قرابة مائة عام . وأنه يعتقد أن چون موهون

هذا وقف موقفاً عدائياً من الملك شارل الأول — ملك إنجلترة — وأنه فى الثورة العنيفة التى قامت ضده انضم إلى صفوف الثائرين .

وأصبح چون موهون حاكماً لإحدى القلاع ، وتشاء الحوادث أن يؤخذ الملك شارل سجيناً فى هذه القلعة ، وأن يتولى حراسته هناك الضابط چون موهون . ولكن الضابط لم يكن جديراً بالثقة التى وُضعت فيه ، ولا أهلا للأمانة التى ألقيت عليه. فقد علم أن الملك السجين يخفى فى جسمه دائماً ماسةً كبيرةً لا تقدَّرُ بالأموال الطائلة ، وأنها كانت هدية إلى الملك السجين من أخيه ملك فرنسا .

وطمع چون موهون فى الماسة الكريمة ، فوعد الملك بأن يسهل له سبيل الفرار من سجن القلعة ، على شرط أن يمنحه هذه الماسة ثمناً لتمكينه من الهروب .

ولم يكن غريباً من چون موهون أن يخون الملك السجين مرة أخرى بعد أن خان أمانة الحراسة فى أول مرة. فما كادت الماسة الثمينة تحصلُ فى يده ، حتى أوعَزَ إلى حُرَّاس القلعة بمراقبة الملك وهو يستعد للهروب من نافذة السجن فى اللحظة المحددة التى لم يكن يعرفها أحدٌ سواه. وأراد الخبيثُ أن يبرئ نفسه من تهمة الرشوة ، ومن فضيحة الخيانة ، فأعلن أمام البرلمان الإنجليزى أن فرار الملك السجين كاد يتم لولا يقظته فى الحراسة ، وحذرُه الشديدُ فى المراقبة !

ولكن الخيانة مهما طال عليها الأمد فلا بدّ أن ينكشف أمرها ، ويفتضح سرها . وانتشر فى إنجلترة نبأ ذلك العمل الدنىء الذى ارتكبه چون موهون ، فلم يكن هناك مفرٌّ من عزله من عمله كحاكم للقلعة ، وعاد ثانية إلى موطنه فى مون فليت يجرُّ أذيال الخيبة والخزى ، ويعيش فى عزلة تامة ، حيث كان موضع الازدراء من حزب الملك وحزب الثائرين على السواء . وظل كذلك فى زوايا الإهمال والإغفال ، وفى مرارة العزلة ، وعار الاحتقار ، إلى أن مات فى عهد الملك شارل الثانى .

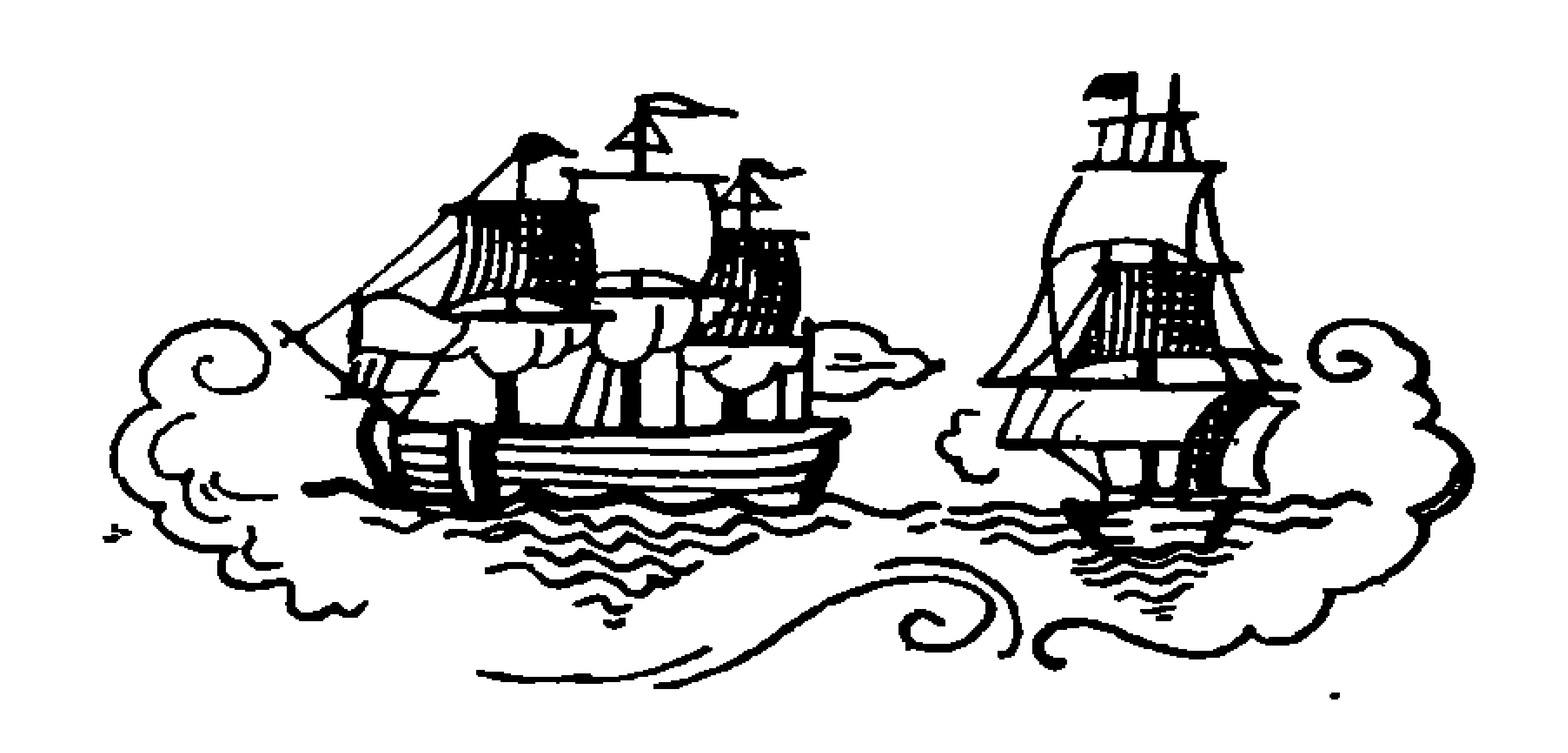
وأبَتِ الراحةُ والهدوء أن تتحقق لجون موهون حتّى بعد أن فارق الحياة! فقد كان يتردد على ألسنة الناس أن چون موهون كان قد أخفى الماسة فى مكان لا تصل إليه العيون، ولا تدركه الظنون . ولم يُخطِر أحداً بمكان إخفائها ، خشيةَ أن يفضح نفسه، أو يكشف جرمه ، وظل محتفظاً وحده بالسر إلى أن طواه الموت وطَوَى معه سرَّه ... ولهذا فهو محتاج بعد أن أطْبَقوا عليه الثرى إلى أن يخرج من ظلام القبر حيناً بعد حين فى سبيل البحث عن ذلك الكنز المفقود . .

ومن هنا جاءت عقيدة الناس فى ذلك الطيف الذى يخرج من فناء المقبرة فى الليالى المظلمة . ولم يكن ذلك الطيف المخيف فى لحيته السوداء وقامته الفارعة ، وعينيه القاتلتين غيرَ چون موهون . . .

ومهما يكن من أمر هذه القصة التى حكاها لى مستر « جلينى » عن

چون موهون فإنى أقول لكم الحق إن شجاعة الأسُود لم تفارقنى مرة واحدة وأنا أجتاز المقابر وفناء الكنيسة مرات كثيرة فى وضح النهار ، حيث أشرف من ذلك المربأ العالى على البحر وهو يحتضن الشاطئ فأحظى بمنظر بديع . أما حين يُرخى الليل أستاره على القرية فليس هناك من شىء مهما كان غالياً يُغرينى بالدنوّ من مكان القبور . . .

والحق أننى شاهدت بعينى مصداق ما تناولته معتقدات أهل القرية عن شخصية چون موهون! فقد رأيتُ فى إحدى الليالى ، وأنا أجتاز ممرًّا ضيقًا يبعد عن المقابر مسافة ميل ، نوراً يتحرك إلى الأمام والخلف حول الكنيسة ، حيث لا يجرؤ إنسان من البشر ، مهما كان شجاعا ، أن يقترب من ذلك المكان فى مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل ، مهما كان فى يده من المصابيح . . !





٢

موتى يتحركون فى القبور

فى الثالث من شهر نوفمبر ، وبعد أيام قليلة من زيارتى لحانة « هواى نوت » ، أخذ الجوُّ يتحول إلى إعصار من أعاصير الشتاء . وكان كل شىء فى الطبيعة يُنذر بأن شتاءً قاسياً على وشك الحلول . وبينما نحن عائدون من الدرس الذى كان يلقيه علينا المستر جلينى فى قاعة من قاعات البيوت التى خلفتها أسرة موهون ، كانت عيدانٌ من الهشيم وسيقانٌ من القش تتناثر من سقوف البيوت ويحملها الهواء العنيف . وكانت شظايا من القرميد الأحمر فوق سطوح المنازل تسوقها الرياح ، وعلى الرغم من ذلك كان الأطفال الصغار يُغنون :

اخطفى يا بروقْ وعصفى يا رياح
والجئى يا سفين نحو ثغرٍ أمينْ
قبلَ نور الصباح !

واستمرت الريح فى زئيرها المرعب طول الليل كلّه ، حتى استحال النوم على أكثر أهل القرية ، فإن أصوات القرميد المتساقط من فوق السطوح ، وأصواتَ النوافذ والأبواب التى كان تخبطها الرياح ، جعلت النوم حراماً على كثير من الجفون . . . وكان المطر يتساقط من السماء بغزارة حتى ملأ الغدران والنهر والبحيرة ، ففاضت المياه على كل شبر فى القرية ، وما أصبح الصباحُ حتى كان فناء الكنيسة كلّه مغموراً بالماء ، على الرغم من أنه كان على أرض مرتفعة ، وبدت الكنيسة والماء حولها كأنها جزيرة صغيرة عمودية الانحدار .

ودامت العاصفة ساعات ، ولكن الريح هدأت بعد ذلك ، وانحسرت مياه البحر والنهر التى فاضت على كل مكان ، وعادت الشمس تشرق بوجهها من جديد ، وخرج الناسُ ساعةَ الظهيرة من محابسهم فى بيوتهم يشهدون آثار العاصفة ، وآثارَ الطوفان ، ويتحدثون عن ذكرياتهم ، ويذكر بعض العجائز منهم أنهم لم يشهدوا مثل ذلك الإعصار من زمن بعيد .

وسواء أكانت هذه العاصفة أشدَّ ما لقيتهُ مون فليت أم لا ، فإنها على كل حال كانت تجربةً عنيفةً لى ، وكانت أشد ما مر بى من

أمور ، فقد غَيَّرَتْ مجرى حياتى كما ستعرفه عما قليل .

لقد قلتُ لك إن ماء السيل قد ارتفع فى فناء الكنيسة حتّى ظهرت فى الوسط كأنها جزيرة صغيرةٌ قائمة. ولكن ما إن هدأت العاصفة حتّى انحسر الماءُ، واستطاع المستر جلينى أن يُلقى موعظته فى يوم الأحـــد التالى .

فى صباح ذلك الأحد لم يكن فى الكنيسة غيرُ الواعظ ، وراتسى وحفنة من الأولاد الذين فرحوا لأنهم خاضوا إلى الكنيسة مياهاً وغُدراناً قد طفت على سطحها فيرانٌ غريقة ! ولم تحضر خالتى للصلاة لأن صُداعاً شديداً منعها من المجىء . وما كان أشدَّ دهشة الحاضرين حين رأوا إلزيڤير بلوك يجلس على مقعد هناك ! ولعله قد جاء هذا اليوم على غير عادته اعترافاً منه بجميل الواعظ جلينى ، الذى نظم الأشعار التى نقشت على ضريح ولده داڤيد !

وفى صباح ذلك الأحد بالذات حدثَ شىءٌ أطارَ أفكارنا جميعاً ، فقبل أن يبدأ جلينى فى موعظته سمعنا صوتاً غريباً كأنه صاعد من تحت أطباق الأرض ! وهنا خطرت على البال تلك الحكايةُ التى كانت تُروى فى القرية ، من أن صيحة عاليةً فظيعةً قد ارتفعت منذ سنوات كثيرة من القَبْوة التى تضم تحتها قبور أسرة موهون، فلاذ القسُّ والمصلون بالفرار ، وهجروا الصلاة بعد ذلك لبضعة أسابيع !

وقد بدا الفزع علينا جميعا فى ذلك اليوم ، حتى المرأة العجوز « مسز تاكر » التى هزها الرعب فسقط منظارها على حِجرها مرتين ! وإن كان راتسى قد حاول أن يُخفى هذا الصوتَ الغريب بما كان يُحدثه من دقاتِ قدميه على الأرض .

ولم يكد يهدأ ذلك الصوت الغريب بعضَ الوقت حتى عاد أكثر ارتفاعاً ، وأملأ فراغاً ، وأكثر صريراً ، كأنه صَيحات الألم المرير تخرج من فم إنسان عجوز !

وهنا لم تستطع مسز تاكر أن تحبس صرخةً عاليةً وهى تقول للواعظ :

ــ آه ! أيها السيد ! إلى متى تظلون هنا بعد أن تحركت جثثُ أسرة موهون فى قبورها ؟

وانطلقت العجوز المسكينة فى سرعة السهم إلى خارج الكنيسة ، وانطلق معها أكثر المصلين . وصاحت سيدةٌ أخرى قائلة :

ــ يا إلهى ! أخشى أن يكون مصيرنا اليوم مصير « كراكى جونس » الذى وجدوا جثمانه على كلأ الكنيسة الأخضر من زمن غير بعيد ! وهكذا لم يَبقَ فى الكنيسة أحدٌ غير الواعظ ، وراتسى ، والزيفير ، وبالطبع بقيتُ معهم أيها القارئ العزيز !

ولعل من أسباب بقائى معهم وعدم فرارى مع الهاربين أننى لم أود أن أظهر بمظهر الجبن أمام هؤلاء الرجال ، فقد كنتُ حريصا على أن لا أكون أقلَّ شجاعة منهم !

ولقد قلت لنفسى لأطمئنها وأعلمها الثبات: إن بلاك بيرد إذا طلع من قبره ونَفَضَ عنه غُبار الأرض، فلن يمسَّنى بسوء دون هؤلاء الرجال! لأنَّ ولداً مثلى لا يَعنْيه فى قليل ولا كثير . .

وكنت على ثقة – من ناحية أخرى – أن ضربة واحدة من يد الزيفير القوية تكفى لأن تَقف المضروبَ عند حدِّه حتى ولو كان من أشباح الموتى من أسرة موهون . . . !

ولما فرغنا من الصلاة اتجه راتسى إلى مستر جليفى قائلاً:

– أخشى أن الله يُنذرنا بشرٍ مُسْتطير ، وهل هناك أفظع من أن نسمع أجساد الموتى فى القبور تتحرك من تحت أقدامنا ؟

فأجابه جليفى قائلاً:

– «إن هذه الأصوات التى سمعتموها ليست إلا ظاهرةً طبيعيةً كأصوات الأمواج التى تتكسر على شواطئ البحار . لقد فاض السيل ، وتدفقت المياه حتى ملأت القبْوَ الذى يزدحم بتوابيت الموتى من أسرة موهون ، وأخذت التوابيتُ تطفو على المياه داخلَ القبْو ، ويرتطمُ بعضها فى بعض، ولما كان القبو مجوَّفا فإنه يرددُ أصْداء الارتطام فى ذلك الصوت الغريب الذى كنتم تسمعون . إنه من الحق أنَّ الموتى تحت أقدامنا، وماذا يستطيعون أن يفعلوا وهُم فى أجداثهم إذا كانت تموجات الماء تدفعهم هنا وهناك ؟ عجباً لك يا راتسى ! أما كان أوْلى بكَ أن لا تخيفَ هذا

الغلام بمثل هذا الحديث السخيف عن الأشباح ، بينما الحقيقة الناصعة كافية لإزالة الأوهام ؟ »

والحق أن كلام الواعظ وأصداء الحقيقة من فمه كان لها أثرُها العميقُ فى نفسى ، وما شككتُ لحظة فى أنه كان على صواب فيما يقول . . . ولكن راتسى لم يقبل هذا الكلام كما قبلته أنا ، فردَّ على مستر جلينى قائلاً :

ــ حسناً أيها السيدُ ! إننى رجل ساذجٌ قليلُ المعرفة ، ولا أعرف شيئاً عن هذه السيول ، والتيارات السُّفلية ، والأعمال الخفيَّة التى تقوم بها الطبيعة فى باطن الأرض كما ذكرت ! ولكنى أذكِّرك بالأثر الذى يقول : « حينما يتحرك الموهون فإن ذلك نذير بحزن عظيم يسودُ قريةَ مون فليت » .

وانتهى الحديث بين راتسى ومستر جلينى ، وخرجت مع الواعظ لأصحبه فى طريقه إلى مأواه فى القرية ، وقطعنا الطريق وهو يقص علىَّ قصة « بلاك بيرد » ، وقصة الماسة الثمينة التى وعد لو اهتدى إلى المكان الذى خبأها فيه لأنفق ما تجلبهُ من المال فى الإحسان إلى المساكين تكفيراً عن خطيئته وخيانته نحو واجبه فى القلعة من ناحية ، ونحو الملك شارل الذى غدر به من ناحية أخرى. ولكن المنية لم تمهله ليحقّق أمنيته . ولهذا يقول الناس : إنه لن يهدأ له مضجع فى القبر حتى يحصُلَ على

الجوهرة الثمينة ويُنفقَها على الفقراء والمساكين . .

* * *

وظلت قصة بلاك بيرد التى قصها علىَّ المستر جلينى تسيطر على عقلى وتستولى على أفكارى إلى حد بعيد . وأخذت أسائل نفسى متعجباً : فى أى مخبأ خفى من مخابئ الأرض استطاع بلاك بيرد أن يُخفى هذه الجوهرةَ الثمينة ؟ وهل أستطيع – أنا ذلك الغلام الناشئ – أن أعثرَ عليها يوماً ما ، فأجعل من نفسى رجلا غنيًّا ؟

والحق أن ذلك الصوت الذى سمعناه ينطلق من تحت الأرض فى فناء المقبرة قد زادنى حَيرةً وارتباكاً ، فقد كان فى عمقه ودويِّه الأجوف لا يدلُّ على أنه صوت توابيتَ أدركها البلى والفناءُ . . وكم شهدتُ بعينى «راتسى» وهو يحفر بعض القبور ليدفن بعضِ الميتين حديثاً ، فرأيت أخشاب التوابيت قد تعطنت وتأكَّلت إلى حدٍّ لا يمكن معه أن تحدث مثل ذلك الصوت الغريب . فما بالك بتوابيت قُدامى الأموات من أسرة موهون التى مضت عليها أجيال وأجيال ؟

ولقد أقنعتُ نفسى بأن تعليل المستر جلينى لهذا الصوت لا بد أن يكون على جانب الحق والصواب ، وإلا – إذا لم تكن هذه الأصوات أصوات ارتطام التوابيتِ فى داخل القبو – فماذا عَساها تكون ؟ !

* * *

وأخذ التفكير فى الماسة الثمينة يُعاودنى من جديد . . . !

أترى أخفاها بلاك بيرد - أو چون موهون - فى قبره ؟ ثم أليس من الجائز أنه ينهض كل ليلة عند غروب الشمس من تابوته ليبدأ البحث عن الجوهرة اللامعة التى أضاع من أجلها شرفه وسمعته ؟ وأين يبحث عنها إذا لم تكن مخبوءة معه داخل المقبرة ؟ أفى فناء الكنيسة ؟ أم فى القرية حيثُ المساربُ الداجية والأماكنُ التى يجللها الظلام ؟

وهنا تذكرت قصة كراكى جونس وجسده الملقى على كلأ الكنيسة النضير !

كان يوم الاثنين هو اليوم التالى للقائنا فى الكنيسة حينما سمعنا الصوتَ الغريب ، وقد ظننت أنه من الخير أن أذهب إلى فناء المقابر مرة ثانية لأسمع بأذنى إذا كانت أجساد الموهون لاتزال تتحرك فى قبورها . وما كدتُ أبلغ هناك - بعد أن انقطعت أنفاسى من الجرى والخوف - حتى وضعتُ أذنى على حائط المكان لأتحسّس هناك الأصوات ، إذا كان هناك صوت ! وكأن ذلك لم يكفنى ، فانطرحتُ على الحشيش الطويل المبلّل ، وألقيت أذنى على سطح الأرض لعلى أستطيع أن أتسمع صوتاً خارجاً من بطنها ! ولكنى لم أظفر بشىء مما كنتُ أشتهيه . . . وعندها أقنعت نفسى بأن موتى الموهون قد عادوا إلى الراحة والاستقرار من جديد !

ولكن هنا فاجأنى مشهدٌ غريب .. فما كان أشدّ دهشتى وأنا حول

ركن من أركان المقبرة حين وقعت عيني على رجلين هما راتسي والزيڤير بلوك ! ولم يعلما حين فاجأتهما بوجودي ، وقد رأيت راتسي منبطحاً على الأرض ، وقد ألقى أذنه على الجدار كأنه يتسمع ، ولكن ماذا يتسمّع ؟ ذلك ما لم أكن أعرفه في ذلك الحين . . . أما الزيڤير بلوك فقد كان جالساً على الأرض مُسنداً ظهره إلى كتَيِف الجدار من الداخل ، وفي إحدى يديه منظار مقرب ، وفي الأخرى بيبته التي كان يتصاعد منها الدخان ، بينما يرسل نظراته إلى البحر المتلاطم الأمواج . .

وهنا صعد الدَّمُ إلى رأسي وشَعَرت بالخجل كأنني أتيت منكراً من الأمر . ولو أنني أعتقد أن حقي في المجيء إلى هذا المكان لايقل عن حق أي إنسان فيه ! ولعل نصيب راتسي من الخجل لم يكن أقل من نصيبي ، فقد رأيت الدم والحمرة تعلو وجهه كله ! ولكن لعل هذه الحمرة كانت بسبب مجهوده في انبطاحه على الأرض !

ولا أنكر أن شيئاً من الغضب قد بدا على وجه راتسي ، ولو أنه حاول أن يُخفيه بتلطُّفه معي في افتتاح الحديث قائلا :

— « صباح الخير يا چون ! والآن ما الذي جاء بك إلى هذا المكان في ذلك اليوم الجميل ؟ »

وقد أجبته على الفور بأنني جئتُ لأسمع بأذني في ضحْوة النهار المشرق تحرُّكَ أجسادِ أسرة موهون إذا كانوا لا يزالون يتحركون . .

فأجابنى راتسى قائلاً :

– « لا أستطيع أن أقول لك يا چون إذا كانوا يتحركون أم لا ، وإذا كنت لا تود أن تضيع وقتك وتفكيرك فى هذه المسائل التافهة ، أو كان عندك فُسحة من الوقت لا تعرفُ كيف تنفقها ، ولا فى أى عمل تعملها فى ذلك الصباح فارجع إلى سقيفتى التى أنحت فيها شواهد القبور ، وأحضر لى المطرقة المسطحة لحاجتى إليها الآن . »

ولقد كنتُ على يقين أن راتسى اخترع هذه الحجة ليُبعدنى بها من هذا المكان ، ولكننى على كل حال فرحتُ لأننى وجدت سبباً لأغادر موضعاً أحسستُ أن بقائى به غيرُ مرغوب فيه . .

وما أسرعَ ما رأيتُ كيف كان الرجلان غير جادين معى حينما طلب منى راتسى أن أحضر له المطرقة . فإنهما لم ينتظرا عودتى إليهما بما طلباه ، ولكنى رأيتهما عائدين عند أول المروج فى الطريق . وقد اعتذر راتسى هنا بأنه الآن غير محتاج إلى المطرقة ، لأنه استطاع أن يُنجز العمل بدونها .

وهكذا عدنا نحن الثلاثة معاً إلى قرية مون فليت . . .



٣

مخبأ المهربين

لقد قلت لك إننى كنت أتردد فى خلال النهار على فناء الكنيسة ، وفى غير أوقات المدرسة ، لأرى البحر فى أجمل مناظره من ذلك المكان العالى . وكان فى قرية مون فليت عدد قليل من الأولاد فى مثل عمرى ، ولكنى لم أحاول أن أعقدَ صداقةً مع واحد منهم . ولهذا كنت أتسلى باللعب وحيداً فى الهواء الطَّلْق بعيداً عن المنزل ، لأن خالتى كانت تكره أن ترى ولداً فى أحذيته الملوثة بالطين قريباً منها !

ولقد حرصت بعد ذلك اليوم الذى فاجأت فيه إلزيڤير وراتسى فى

فناء الكنيسة على أن لا أذهب هناك لأسابيع قليلة ، خشية أن أفاجئهم هناك ثانية ، ولكنى استأنفتُ زياراتى بعد ذلك غيرَ مرة فلم أرهما هناك .

وفى يوم من أيام فبراير سنة ١٧٥٨ وفى ساعة العصر بعد أن مالت شمس الظهيرة إلى الأفق الغربى ، كنتُ جالساً على سطح تلك المقبرة كعادتى أنظر إلى البحر .

وكان الهواء دافئاً لطيفاً كأننا كنا فى أحد الأيام من شهر مايو ، وكان السكون التام يسودُ المكانَ وما حَوْله ، إلى حدٍّ أننى كنت أسمع على بُعد نصف ميل أصوات جذور اللِّفت التى كان يلقيها الفلاح العجوز « جافار جورج » فى عربة النقل بعد أن جمعها من حقله . .

ومنذ ذلك السيل المنهمر الذى حدّثتُك عنه فى فصل سابق فإن السماء قد اعتدلت أحوالها ، وصفا الجو فيها ، ما عدا بعضَ الرياح العاتية ، والأمطار القليلة حيناً ، أو المنعدمة فى أكثر الأحيان .

وما كادت الأرض تجفُّ بعد آثار ذلك السيل حتى ظهرت فيها شقوق ، وتفتحت فيها أخاديد صغيرة طويلة ، كأنها فخّار لم يحسن الصناع إحراقه ، فبدت على سطحه الشقوق . وليست المشابهة هنا إلا على وجه من الحقيقة ، فإن تربة الأرض فى قرية مون فليت كانت من الصَّلصال الثقيل . .

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر أو جاوزتها بقليل حين أخذت

الأهبة لمغادرة المكان عائداً إلى المنزل ، حيث أتناول الشاى مع خالتى .
وما كدت أهمّ بالرحيل حتى سمعت صوتاً صاعداً من تحت المكان الذى كنتُ أجلس عليه فوق المقبرة ! وهنا رأيت الأرض قد انهارت تحت الصخرة ، وأن الشق قد اتسع حتى بلغ حافة القبر ، وتخلّف من ذلك نَقْب بلغ من سَعته أن الرجل لا يستطيع أن يخطوه فى خُطوة واحدة واسعة.

وانبطحت على امتداد النقب ، لعلى أرى ما تحته ، ولم يكن ذلك غريباً منى ولا عجيباً ، فأى غلام يستطيع أن يحبس نفسه من استطلاع ما تحت الأرض من خلال ثقب تفتّح أمام عينيه ؟ وكنت على تمام اليقين بأن تحت هذا النُّصب الضخم كهفاً رحيباً تُوصِّل هذه الفتحة إليه .

وما كذبتْ فراستى ! فقد انزلقت من الفتحة التى كانت كافية لمرورى فيها ، واستعنت بأكوام التراب المنهار ، وما هى إلا لحظات قليلة حتى وجدتُنى قائماً منتصباً تحت الصخرة العالية بين القبور..

والآن صح ما افترضته من فروض . لأننى كنت قريباً من اليقين بأن تحت هذا القبر لا بد أن يكون قبوٌ تحت الأرض ، وأن سقف هذا القبو قد اندكّ لأمرٍ ما ، فانهال عليه التراب .

ولكن لم تكد عيناى تألفان الظلام تحت الأرض وتتبينان ما حولهما ، حتى ظهر لى أننى لم أكن فى اعتقادى على صواب ، فقد بان لى أن هذا النقب الذى انزلقت فيه لم يكن غير فتحة لممر دهليز طويل ينحدر

انحداراً خفيفاً نحو باطن الأرض فى اتجاه الكنيسة . . . وكان هذا الاكتشاف شيئاً رائعاً ، وأخذ قلبي يخفق خفقات الدهشة والتطلع ، وأخذت الآمال والأحلام تطوف برأسى . فقد يكون ذلك الطريق المخبوء فى أعماق الأرض سبيلاً إلى أعاظم الأشياء ، ومن الجائز جداً أن يقودنى إلى كنز « بلاك بيرد » الثمين . . .

ولا أكتمك يا صديقى القارئ العزيز أن الأحلام اللذيذة والرؤى الجميلة لم تغادر خيالى ولا مخيلتى لحظة واحدة ، منذ أن قص علىّ مستر جلينى قصة هذه الماسة الكبيرة النفيسة التى خبأها بلاك بيرد فى بعض الأمكنة ، ولم يهتد هو ولا أحد إليها من ذلك الزمن البعيد . وكثيراً ما كنت أحلمُ بالثراء الذى ستجلبه لى هذه الجوهرة لو ساقتنى إليها الأقدار السعيدة!

* * *

وكان هذا الدهليز يتسع مسافة خطوتين ، ويرتفع إلى قدر قامة الإنسان ، وكان منحوتاً فى باطن الأرض من غير أن يُبطَّن بالطوب أو يُطلى بالجص . ومما أثار دهشتى كثيراً أنه لم يبْدُ عليه أنه كان مهجوراً أو سبخاً أو مكاناً يعيش فيه العنكبوت . وإنما كان يبدو نظيفاً مطروقاً كأنه طريق مسلوك . فلقد كانت آثار أقدام وآثار أجسام ثقيلة مجرورة تظهر على طول هذا الدهليز .

وقد صممت على أن أجتاز هذا الممر الغريب حتى أرى ماذا يمكن

أن يؤديني إليه ، ومددت ذراعي إلى الأمام أتحسس بهما كل ما يمكن أن يصادفني في طريقي الشديد الظلام، وكنت أجرُّ قدميّ جراً خفيفاً حذِرا ، لأتفادى السقوط فيما قد يصادفني من حفر .

وكنت كلما تقدمتُ إلى الأمام خطوةً رأيتُ الظلام يشتد حلوكةً ،

وهنا استولى عليّ رعبٌ شديد ، ولم أفكر في التقدم أكثر مما خطوت ، وما كان أكثر سروري حين دُرتُ بعض دوراتٍ لأرى بصيصاً من النور يَنْفُذُ من خلال النقب الذي تحت المقبرة . ولكنّ الظلام كان ورائي بشكل مخيف ، فعاد إليّ الرعب من جديد، ومرت لحظة لم أدر فيها ما صنعت، ولكنني رأيتني أدفع نفسي دفعاً من خلال النقب لأصعد ثانية إلى فناء الكنيسة على وجه الأرض ، لأطأ بقدميّ الكلأ النضير ، ولأستقبل الشفق حيث الشمس كانت جانحة إلى المغيب ، ولأتنسّم الهواء المنعش العليل !

وهنا أسلمت قدمي للجري عائداً نحو مسكني في بيت خالتي ، فقد فاتني تناول الشاي معها في ميعاده المعلوم ، وأخشى أن يفوتني طعام العشاء . وهناك سبب آخر لإسراعي في الجري ، فقد ظننتُ أن إحضار شمعة معي قد يُعينني على اكتشاف ما وراء الدهليز لو أنني أردتُ ذلك . ولقد صممت فعلا على اكتشافه مهما كان من الفزع الذي لقيته أو سألقاه بعد ذلك !

ولا أكتمك يا عزيزى أن خالتى استقبلتنى فى مطبخ البيت بتحية يجللها أسفٌ عميقٌ ، لأننى عدت إلى البيت فى هذه الساعة المتأخرة . وكان وجهى كله قد استحال إلى حمرة قانئة ، ولم تكن حمرة الخجل . . . ولكنها حمرة الحرارة التى أثارها فى جسمى ذلك الكفاح العنيف !

ولم تكن خالتى ممن يُفقدهم الغضب اتزان الكلام فيفوهون بأعنف الألفاظ ، ولكن كانت لها طريقتها الخاصة بأن تصمُت فلا تقول شيئاً ، وكان ذلك الصمت أقسى علىّ من أنواع العتاب والعقاب .

وتستطيع أن تخمن يا صديقى القارئ أننى لم أخبر خالتى بشىء مما رأيتُه تحت المقبرة فى الدهليز . ولكننى كنت موطداً عزمى على أن أعود إلى المقبرة ومعى الشمعة بمجرد أن تدير خالتى ظهرها . .

وما كدنا نفرغ من العشاء — وقد اختفت الشمس الغاربة وراءَ الأفق البعيد — حتى التفتت خالتى إلىّ ، وقالت لى فى صوت بارد رزين :

— « جون ! لقد لاحظتُ أنك كثيراً ما تكون خارج البيت ، ثم تعود فى ساعة متأخرة فى المساء ، نحو منتصف السابعة أو الثامنة . وليس لائقاً ولا جميلا من الأولاد والناشئة أن يقضُوا الأمسية خارج بيوتهم . ولا أودُّ أن يقول الناس عنك إنك من الأولاد المتشردين . .

ولهذا يجب أن تفهم أننى لن أدَعك تخرجُ ثانية فى هذا المساء ولا فى

أىّ مساء آخرَ بعد الغسق . إن السرير هو أنسب مكان للأولاد حينما يأتى الليل عقب الغروب . وإذا كنت ترى أن ذلك يعنى الحكم عليك بالنوم المبكر جداً ، فلا بأس من أن تجلس معى ساعة فى غرفة الاستقبال حيث تصغى إلىّ وأنا أقرأ لك بعضَ صفحات من كتاب تبدد أوهامك ، وتمحو أفكارك الشاردة ، وترسلك إلى نوم هادئ عميق ! »

وبدأت خالتى تقرأ ، وكان شيئاً ثقيلاً مملاً كثيراً ما قاسيته فى ليلات ماضية ! وقد كان من الممكن أن يحملنى صوتها المملوءُ بالنّعاس والكسل على أن يغالبنى النوم ، لولا أن فكرةَ اكتشاف الدهليز قد أطارت النوم من عينى ! ودفعنى هذا التأخرُ فى العودة إلى المقبرة إلى غيظ وحَنَق شديد . .

وانتهت خالتى من تلاوة الدرس الخلقى الذى كانت تقرؤه من الكتاب ، وحمدت الله على أنها انتهت ! وانتظرتُ ابتداء مهمتى حينما أغلقت خالتى الكتاب وتمنت لى ليلة سعيدة ، ونوماً هادئاً فى صوت صارم شديد .

وبينما أنا فى طريقى لأعطيها قبلة المساء المعتادة ، إذ بها تُدير وجهها عنى كأنها لم تكن ترانى ، وهكذا ذهب كلانا إلى السرير من غير قبلة من صاحبه . ومنذ تلك الليلة كان ذلك آخرَ عهدى بتقبيل خالتى ، وآخرَ عهدى بالنوم فى ذلك السرير !

* * *

كان القمر فى التربيع الثانى من الشهر ، وكان نوره الساطع ينفذُ

من خلال النافذة ، ولم أكن فى حاجة إلى شمعة أوقدها فى غرفة النوم ، لضوء القمر من ناحية ، ولأنى لم أخلع ثياب النهار من ناحية أخرى ، فقد كنتُ مصمماً على أن أنتظر حتّى تذهب خالتى إلى النوم ، وأذهب أنا إلى المقبرة والدهليز مهما كان هنالك من أشباح أو أطياف !

ولم أطقْ أن أرجئ استكشاف الدهليز إلى أن يطلع الصباح ، فقد خشيتُ أن يعثر بعض السائرين بالليل على هذه الفتحة ، فينفذ منها إلى الدهليز ويسبقنى فى الحصول على كنز « بلاك بيرد » الثمين !

وفى النهاية استلقيت على السرير بملابس النهار ، وأنا فى صَحْوة تامة لا تدركها سِنَةٌ من النوم ،وانتظرتُ حتّى يدرك النومُ خالتى . ولم أطمئن إلا حين سمعتها تغط فى النوم ، فأيقنت حينئذ أننى أستطيع أن أفعل ما أريد . .

وانتظرتُ قليلا لأتأكد أنها فى نوم عميق ،وهناخلعت حذائى وتسللت إلى السلالم فى حذر شديد ، وفى هدوء تام .

ولا أكتمك أن المبالغة فى الحذر تلك الليلة كادتْ توقعنى فى المحظور ! فقد كانت يداى وقدماى وجسمى تعثر بأشياء واضحة ظاهرةٍ للعيان ، ولكن الخوف جعلنى أخطئ التقدير ! ومع هذا فقد كان صمام الأمان يبشرنى بأن لا داعى للخوف والقلق ! فإن شخير خالتى لم ينقطع لحظة واحدة ، مما أكد لى أنها لن تقوم من نومها اللذيذ ، ولو أنها كانت صحت

فى تلك الليلة لتغير مجرى حياتى إلى حد كبير . . .

وما كان أشد سرورى حين وجدت فى غرفة التخزين بالمنزل شمعة طيبة من ذلك النوع الذى يَبقى طويلا قبل أن يذوب . وهنا غادرت المنزل فى هدوء . . .

وأخذت أجوسُ خلالَ طرقات القرية الهادئة النائمة ، مختبئاً فى الظلال التى كانت تلقيها جدران البيوت فى أضواء القمر . وكان كل إنسان فى قرية مون فليت مستسلماً فى تلك الساعة المتأخرة من الليل إلى نوم عميق . وكانت البيوت يجللها من الداخل ظلام حالك ، فلم يبدُ من نوافذها بصيص من نور ، أو شعاع من ضوء ، ما عدا حانة « هواى نوت » ، فحينما كنت فى مواجهتها رأيت من خلال الستار ضوءاً يدل على أن مصباحاً يضىء فى غرفتها الأرضية . واقتربت من نافذة الحانة وحاولتُ أن أتبين ما بداخلها ، ولكن أنفاسَ من فى الحانة وأبخرتهم قد تكاثفت على زجاج النافذة ، فحجبت الرؤية عن عينى تماماً ، وعقدت ستاراً آخر خلف الستار . . .

وقد زادنى ذلك دهشةً وغرابة . لأنه أكدَ لى أنه لابد أن يكون بداخل الحانة عدد كثير من الرفاق . . وهنا وقفت وأخذت ألقى بأذنى على النافذة لأتسمع ما قد يكون دائراً فى الداخل من كلام ، فلم أسمع غير همهمة أصوات عميقة مختلطة ، ولم تكن أصوات قوم سكارى أو معربدين ،

وإنما هي أصوات منخفضة رزينة لجماعة صاحين . . .

وهنا ساءلت نفسي : ماذا عسى أن يكون هؤلاء القوم يصنعون هنا ، وأى موضوع يبحثون فى مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

وقد كان من الجائز أن يُمسكنى الفضول وقتاً أطول عند نافذة الحانة ، لأعرف ما كان يدور هناك ، لولا أن تشوقى إلى قبو المقبرة ، وإلى الماسة الثمينة قد حملنى على أن أترك جُدران الحانة لأذهب إلى جدران الدهليز ...

لم أكدْ أبلغ فناء الكنيسة حتى أخذ الخوف يدب إلى نفسى . وقد بدا لى أنه لا ضير علىّ بأن أهاجم بلاك بيرد فى البقعة من الأرض وفى الساعة التى تقول الإشاعات عنه إنه يحب الظهور فيها باحثاً عن كنزه المفقود . وما كدت أجتاز الباب الكبير حتى توقعت أن أرى بلاك بيرد فى قامته الطويلة الفارعة ، وفى حاجبيه الكثيفين ، وفى عينيه اللتين يبدو منهما الشر كما كانت تصوره الأقاصيص ، وتصورته يطل برأسه من وراء الجدران الشمالية . ولكن لم أسمع حساً ولم أر حركة ، ماعدا صوت الصقيع الرقيق الذى كان يتهشم تحت قدمى وأنا أجتاز الفناء .

وكنت أقفز فوق القبور المبعثرة فى فناء الكنيسة متحاشياً أن أقع فى دائرة الظلام ، ومتجهاً نحو شجرات السِّدر المتجمعة فى ركن بعيد ...

وهناك بلغت المقبرة وقد بدَتْ فى بياضها وو راءها سواد الأشجار ، وعند قدمها ظهر النقب كرقعة من القطيفة السوداء فوق سطح الأرض .

وتوقفت لحظة عن التفكير ، ثم تصورت أن بلاك بيرد قد يكون راقداً فى قاع الحفرة ينتظر . . . وهنا وقفت متردداً لا أدرى ماذا أصنع ، أأتقدم إلى الأمام خطوة أم أرتد إلى الخلف خطوات ؟ !

وألقيت بنظرى إلى البحر الذى كان صوت أمواجه الهادئة يصل إلى أذنى ، ولم يكن البحر فى تلك الليلة عالياً ولا مضطرباً ، فقد كان سطحه كلوح من الزجاج المصقول ، ولكن التموجات الخفيفة على ساحل الخليج كان يُسمعُ لها خشخشةٌ كأنها حفيف الشجر .

وما كان أشد دهشتى حين رأيت قارباً يرقد قريباً من الشاطئ . ولعل من أغرب الأمور أن يكون قاربٌ فى مياه مون فليت فى تلك الساعة المتأخرة من الليل. وبينما أراقب القارب إذا بى أرى شعلة من اللهب الأزرق قد انبثقت منه وانطفأت بعد لحظة ، كأنها صاروخ انفجر فوق المركب. ومن هنا عرفت أن هذا القارب لا بد أن يكون من سفن التهريب ، وأن هذا اللهب لم يكن إلا شارةً من البحارة على ظهر المركب ليخبروا بها أعوانهم على الشطِّ بأنهم فى هذا الموضع من البحر استعداداً لإنزال البضائع المهربة إلى البر .

وهنا عاودتنى الشجاعة التى كانت فارقتنى عند فتحة النقب أول الأمر ، وصممت على أن يكون هذا الضوء الأزرق علامتى أنا للنزول فى النقب ، لا علامة المهربين إلى شركائهم فى التهريب ...!

وتلفت يميناً وشمالا ، وانحدرت إلى النقب بالطريقة التى انحدرت بها فى أول النهار . . .

وأمسكت الشمعة فى يدى ومددتها أمامى لأتبين على ضوئها طريقى المظلم ، ودخلت الدهليز ومشيت فيه بعض خطوات . ولم أنقطع لحظة عن التفكير فى أمر الكنز المخبوء إذا ما حصلت عليه بقدر سعيد ، وأخذت أحصى الهدايا التى سأقدمها إلى معلمى مستر جلينى ، وراتسى ، وخالتى على الرغم من صرامتها وموقفها الأخير منى فى هذه الليلة . . !

نعم ! لو عثرت على الكنز لقدمت إلى مستر جلينى واعظ القرية ومعلم أولادها حصاناً صغيراً ؛ ولمنحت راتسى قارباً ؛ أما خالتى فسأعطيها ، على الرغم مما صنعت معى ، ثوبا من خالص الحرير ! وهكذا سأغدو أغنى رجل فى قرية مون فليت ! أغنى حتى من ماسكيو ! وسأبنى بيتاً من الحجر يطل على مياه البحر من ربوة عالية ، وستكون « جريس ماسكيو » زوجتى حيث نعيش فى خميلة الحب زوجين سعيدين !

وكان على أرض الدهليز آثار أقدام كثيرة ، وكانت جوانب القبو وسقوفه مجللة بالسواد الذى تركته آثار الدخان المنبعث من مصابيح . . . وقد أيقنت أن بعض الرجال كانوا هنا قبل ذلك بقليل ، فإن الآثار لاتزال تنطق بذلك ، وهنا خشيت أن يكونوا قد اهتدوا إلى الماسة الثمينة وحصلوا عليها قبلى . . ولو قد حدث ذلك حقاً لذهبت كل آمالى وأحلامى مع الريح . . . !

ولم تكن مسافة الدهليز أكثر من ٢٠ قدماً، ولو أنها بدت لى كأنها آلاف من الأقدام . وفى نهاية هذه الرحلة — التى طالت تحت الأرض كأنها الأبدُ — بلغتُ حائطاً من الحجر كان قد أقيم فى عرض الممرِّ ، ولكنه الآن قد عُولج بطريقة تجعل منه باباً ينفذ إلى حجرة وراءه. وهنا وقفت على عتبة الباب غير المستوية، وحبَست أنفاسى ، ومددت ذراعى بالشمعة إلى أقصى مدى أستطيعه ، لأرى أيةِ بقعة من الأرض سأنتهى إليها ، قبل أن أضع قدمى عليها . . وقبل أن يقع ضوء الشمعة على شيء أتبينه علمت أننى تحت الكنيسة ، وأن هذه الحجرة ليست غير مدفن أسرة موهون..

واجتزتُ الباب الحجرىّ فوجدتُنى فى حجرة كبيرة ، أكبر من حجرتنا فى مدرسة القرية ، ولكنها أقل منها ارتفاعا ، فقد كانت لا تزيد فى علوها من الأرض إلى السقف على تسعة أقدام ، أى أقل من ثلاثة أمتار .

وكانت أرض هذه الحجرة تعلوها طبقة كثيفة من الرمال ، وقد نصبت فى أحد أطرافها بعض درجات تقود إلى أعلى ، وقد رصت فى حوائطها الأربعة توابيت الموتى من أفراد أسرة موهون . وكانت التوابيت مرصوصة على رُفوف من الحجر أشبهَ برفوف المكاتب ! وفى داخلها التوابيت كأنها الكتب المصفوفة !

نعم ! فى حوائط الحجرة كانت ترقد هذه التوابيت فى أماكنها المخصصة لها ، ولكن فى وسط الحجرة كانت ترقد أشياء أخرى مختلفة عن أجساد الموتى وتوابيتهم كل الاختلاف !

هنا كانت صناديق كثيرة العدد، وبراميل كبيرة وصغيرة، ودنان من أجود الخمور! ولم يساورني الشك لحظة واحدة فى أن تكون هذه البضائع من خبايا المهربين ، لأن الشراب الطيب لا يمكن أن يكون فى هذا المكان الكئيب الموحش إلا ليتفادى الضرائب الجمركية والمكوس ..!

وفى الحق أننى وجدت هنا اكتشافاً عظيماً لم أكن أحلم به ولا أتوقعه، فبدلا من أن أجد جوهرة بلاك بيرد التى كانت حلمى فى اليقظة والمنام، وجدت قبر أسرة الموهون غير مستعمل كمقبرة، وإنما كمخبأ لبضائع المهربين . .

والآن قد فهمت سر ما سمعته من صوت بعد ظهر أحد الآحاد فى فناء الكنيسة كما حدثتك من قبل ! إنه لم يكن صوت التوابيت فقط وهى ترتطم بعضها ببعض فى أعقاب ذلك السيل الغزير حين طغت المياه تحت أرض المقبرة ، ولكنه كان أكثر من ذلك صوت هذه الصناديق والبراميل . . .

كما فهمت أكثر من هذا لماذا عاد راتسى فى اليوم التالى إلى المكان نفسه ؟ إنه كان واحداً من المهربين ، وقد عاد بنفسه ليطمئن إلى أن سر هذا المخبأ لم يفضحه إفشاء ولا ذيوع .

وقد رأيت بعينى على ارتفاع قدمين من حوائط هذه الحجرة ، العلامة التى تركتها على الجدران مياه السيل بعد أن انحسرت .

وهنا بدأ يعاودنى التفكير فى الماسة ثانية ، وفى الطريقة للحصول عليها ، والاهتداء إليها . وأخذت أحدّق النظر فى التوابيت وأتفرّسها عن قرب ، لعلى أعرف أسماء أصحابها الذين يرقدون فيها اليوم وكانوا يتمتعون يوماً بالحياة على الأرض ، ولكن أكثرها لم تكن عليه أسماء . ولا أدرى لماذا بدأتُ أعتقد أننى لن أجد شيئاً فى هذا المكان .

وما كدتُ أدير وجهى لأغادر هذا المخبأ الموحش حتى سرَتْ إلى أذنى — وأنا تحت الأرض — دقات ناقوس الكنيسة معلنةً منتصف الليل

ولا أكتمك أن دقات الناقوس كانت غريبة علىّ هذه المرة ، وقد اختلطت رناتها فلم أدر إذا كانت للبدء أو للختام ! على الرغم مما اشتهر به ناقوس كنيسة مون فليت لصوته الجميل الرنان . .

وقبل أن يأخذ صوت الناقوس فى التلاشى ، أحسستُ بصوت آخر فى الهواء ، وأيقنت أن بعض الناس لا بد أن يكون قد أقبل الآن إلى هذا المكان .

ولم أستطع فى البداية أن أتبين ذلك الصوت الجديد أو أعرف حقيقته ومصدره ، فقد كان يتردد على الأثير من بعيد ولما اقترب منى قليلاً قليلاً عرفتُ أنه صوتُ رجال يتحدثون . . .

وهنا تملكنى الرعبُ فسمّرت فى مكانى كأننى بين الأحياء والأموات! وبدت اللحظة القصيرة من الزمن كأنها الساعات الطوال . وما زلت الآن

أذكر – وقد مر على ذلك الحادث زمان غير قصير – كيف وقفت عند ذاك خائفاً أترقب !

وما أدرى– وأنا فى جحيم الترقب والانتظار– إلا والمهربون قد أطبقوا علىّ وأحاطوا بى من كل جانب ، حتى غدوت كثعلب وقع فى كمين!
وكثيراً ما كنت أسمع عن وسائل المهربين فى التخلص ممن يَخشَوْنَ أن يدلوا عليهم ، أو يفضحوا أمرهم !

وهنا خطر على بالى حادث « كراكى جونس » المسكين التعس ، الذى وجد جسده مطروحاً على الكلأ الأخضر فى حوش الكنيسة ، وكيف تحدثت الإشاعاتُ عنه بأن سُوء طالعه أوقعه فى شبح بلاك بيرد الفظيع !

وما هى إلا لحظةٌ حتى سمعتُ حركةَ رجل يقفز إلى أرض الدهليز ، فأخذت أتلفت يمنة ويسرة فى سرعة لأرى إذا كان هناك سبيل مستطاع إلى الفرار . ولكنى لم أجد وسيلة للانفلات إلى الخارج من غير أن تقع علىّ عيون الرجال .

وقد أخذ الرجل الذى انحدر إلى أسفل القبو يتحدث من خلال الفتحة إلى بقية الرجال الذين على وجه الأرض فى فناء الكنيسة

وعلى حين غفلة وقعتْ عينى على تابوت كبير من الخشب كان يستقر منفرداً قُربَ أعلى الحائط ، على ارتفاع ستة أقدام من الأرض .



وأدركت على الفور أنه مكان مناسب لأختبئ فيه . وما كان أسرع ما تسلقتُ الحائط لأكمن في المخبأ بين الجدار والتابوت . واضطررت أن أرقد على أحد جنبيّ لأن المكان كان من الضيق بحيث لا أستطيع أن أنبسط في رقدتي. وأخذت أرقب بصيص الشموع الخافت ، وهو يلقي ظلالا على سقف الحجرة كلما تقدم الرجال خطوات إلى الداخل .

وهنا سمعت راتسي يقول لرفاقه :

— « أستطيع على الفور أن أسد فوهة النقب ، فلا يستطيع أحد أن يعرف أنه كان هناك فتحة على الإطلاق ».

وسمعت آخر يرد عليه قائلاً :

— « خذ حذرك يا راتسي ! ولا تدعْ أحداً يراك وأنت تفعل ذلك . »

* * *

ودخل عدد آخر من الرجال ، وسمعت أحدهم يقول :

— « لقد كنت في مقاطعة "دورشستر" من ثلاثة أيام ، وسمعت الناس هناك يقولون إن المهربين الذين قبض عليهم في الصيف الماضي سيعدَمون . وكان "ماسكيو" هناك ، ولم يكن أحد سواه هو الذي اقترح عقوبة الإعدام شنقا . »

وهنا ثار سخط الرجال فسمعت أحدهم يُزمجر في غضب وتهديد :

— « آه ! ماسكيو اللعين ! لو أنني لقيته يوماً لقتلته وارتحنا منه. »

وقال آخر :

ــ « كم أود أن أن أقابله فى ليلة مظلمة ؛ إذنْ لعاملته بما يستحق! »

وسمعت على الفور صوت الزيفير يقول :

ــ « كلا! لن يكون الانتقام من ماسكيو على يد واحد منكم ! ولن ينتقم منه غيرى . . . غيرى أنا الذى لا أنسى ولدى الذى لقى مَصرَعهُ على يديه . . اتركوه لى ! »

وطال اضطجاعى على أحد جنبى حتى أحسست بالألم يحز فيه . وقد أصبح الجو فى ذلك الكهف الكئيب خانقاً لا يطاق ، فإن رائحة الدخان الصاعد من القناديل، ورائحة السلع والبضائع المهربة ، وكثرة الأنفاس المختلطة فى هذا المزدحم الضيق قد أصابتنى بغثيان شديد .

وتحولت إلى جنبى الآخر وأنا على أشد ما يكون من الضيق ، لأريح جنبى الوجيع . وهنا فوجئت بسماعى لاسمى على ألسنة بعض الرجال . . .

وكان المتكلم «بارميتر » ، وهو بحارٌ كان يسكن فى الطرف الشمالى للقرية . وأخذ يتحدث عنى قائلا :

ــ « هناك ولد لـ "ترنشارد" ، وهو دائماً يجوس خلال فناء الكنيسة . وكثيراً ما رأيته جالساً على الصخرة التى فوقنا يتطلع إلى البحر ، ولما غربت الشمس ذاتَ مساء نظرت إلى الشاطئ وأنا على ظهر السفينة فرأيت ترنشارد الصغير على الصخرة ، ولم أستطع أن أتبين وجهه حينذاك ،

ولكنني عرفته بشكله . وأشد ما أخشاه أنه يرقبُ حركاتنا ليبلغها إلى « ماسكيو » .

وسمعت جرينيج ، وهو من قرية « رنجستاف » القريبة من مونفليت يرد عليه قائلا :

— « أنت على حق يا بارمير ! فإنني خلال مراقبتي لمنزل ماسكيو لنأمن شر تجسسه علينا كنت كثيراً ما أرى هذا الغلام يدور حول المكان ، وفي عينيه نظرات غريبة مُريبة ، يصوبها دائماً إلى منزل ماسكيو عن كَثَب » .

وكان جرينيج يتكلم بطريقته البطيئة ، ولكنه كان صادقاً فيما قاله عني ! فكثيراً ما كنت أخرج في أمسيات الصيف لأمشي في ذلك الدرب الذي يقود إلى الهضبة خلف بيت السيد ماسكيو . . .

وقد كنت أفعل ذلك لسببين : أولهما أنها كانت نزهة ممتعة حقا في ذلك الطريق المتوج بالجمال ، والثاني أنني كنت أتمنى دائماً أن أرى الفتاة « جريس » ابنة ماسكيو ..

وكثيراً ما كنت أجلس هناك على سور قديم في طرف الحديقة لأتمتع بالنظر إلى البيت الذي يضم هذه الفتاة ، وكنت أراها بعض الحين في ثوبها الأبيض . وهي تتمشى في أركان الحديقة ، كما كنت أحيانا أخترَ أمر قريباً من نافذتها ملوحاً بيدي لها ..

وأذكر مرة أنها كانت مريضة ، فلم أستطع أن أذهب إلى المدرسة ، ولكني ظللت جالساً على سور الحديقة طول اليوم كله ، أتطلع إلى البيت الذى يضمها وهى على سرير المرض ..

لهذا كان حقاً ما قاله جريننج من أننى كنت دائم النظر والطواف حول منزل ماسكيو ، ولكن ليس حقاً أننى أبلغته أىَّ شىء . . .

* * *

وهنا سمعت راتسى وهو يقول مدافعاً عنى :

– « كلا ! كلا ! إن ترنشارد ولد طيب ، وكثيراً ماقال لى إنه يحب الجلوس فى فناء الكنيسة لأنه يستطيع أن يشهد البحر من هذه البقعة فى أجمل مناظره ، لأنه يحب البحر حُباً ما عليه من مزيد ».

وما كان أغرب المفاجأة علىّ حينما سمعت إلزيفير يقول عنى :

– « إن جون ترنشارد ولد شجاع جرىء ، ولطالما تمنيت أن يكون ولدى ، فهو فى مثل عمر ولدى القتيل "دافيد" ، وسيكون فى الغد بحاراً عظيماً ». وكان لهذه الكلمات البسيطة أثرها العميق فى نفسى ، فسرتنى سروراً كثيراً ، لأن إلزيفير كان ينطق بها فى صدق كأنه يعنى ما يقول .

ولكن سرورى قد غشيه جوٌّ آخر من الحزن العميق ، فقد شعرتُ بالأسى يعصر قلبى حينما سمعته يتحدث عن مصرع ولده الفقيد . . .

ولقد هممت ــ وهو يتكلم عنى وعن ولده داڤيد ــ أن أقفز من مخبئى صائحا : « أنا چون ترنشارد بينكم فى هذا المكان». ولكننى استسخفت أن أقوم بهذا العمل الأحمق . . . فعدتُ مرتمياً على جنبى ثانياً . . !

والآن ــ وقد فرَغ الرجال ، أو المهربون ، من إدخال الصناديق والبراميل المهربة إلى داخل الكهف ــ جلسوا يستريحون من عناء العمل ، وبدأ جريننج يرفع صوته بالغناء ، ولكن إلزيڤير أمره بالسكوت قائلا :

ــ « اسكتوا أيها المجانين ! فإن أصواتكم تكفى لأن توقظ أهل القرية النائمين . . .»

وقال راتسى :

ــ « وإذا استيقظ أهل مون فليت على ضوضاء أصواتكم ، فلن يعللوا ذلك الصوتَ إلا بأن "بلاك بيرد" يدعو الراقدين فى المقبرة من أفراد أسرة موهون ليساعدوه فى بحثه عن ماسته الثمينة المفقودة . »

وقد اتضح لى تمامَ الوضوح أن إلزيڤير كان زعيمَ هذه الجماعة ، فقد ساد الصمتُ المكان لمدة دقيقة ، وبعدها عقبَ أحدُ الرجال قائلا :

ــ « إن إلزيڤير لعلى صواب ، فهيا بنا جميعا نخرج من هنا . إن الوقت الآن متأخر ، ولابُد من عودتنا ثانية إلى السفينة . . . »



٤

سجين في المقبرة

غادر المهربون مقبرة أسرة موهون ، وكان الظلام لا يزال كثيفاً . وأخذ وقعُ أقدام الرجال يبعد عن أذنى أكثر فأكثر حينما انتهوا إلى آخر الدهليز . وهنا بقيت أنا وحدى داخلَ المقبرة ، مع الموتى من أفراد أسرة موهون وبين توابيتهم المحيطة بى من كل جانب . ومع هذا فقد كانت أصوات الرجال تأتى إلى مسمعى من بعيد ، وظل ذلك وقتاً حسبته ساعات طويلةً .

وخيل إلىّ أن الرجال كانوا يتساءلون عن طريقة يمكن أن تسد بها

فتحة المقبرة من غير أن يستطيع أحد أن يراها أو يكشف أثرها . ولم أجرؤ أن أترك المكان الذى كنت مختبئاً فيه أو أنزل إلى أرض المقبرة مادامت أصواتهم لا تزال فى أذنى ، خشية أن يعود واحد منهم فيرانى . .

وجلست منتصباً ، مصمماً على أن أعود إلى بيتى الآن ، ولم أطمع أكثر من ذلك فى الحصول على الماسة الثمينة ! وخاصةً بعد أن بلغ منى الخوف والتعب وأضنانى الجوعُ . . . ولهذا بدأتُ أنحدر من الكوّة التى كنت مختبئاً فيها . ولكن خروجى من هذا المكان الموحش بدا لى أكثرَ صعوبةً مما دخلت فيه . .

واستطعتُ على ضوء الشمعة الخافت فى يدى أن أتبين أن التابوت الذى كان بجانبى قد غيره تراب السنين ، وكان من الصعب أن أخطو فوقه ، أو أضع رُكبتى عليه لأنزل إلى أرض المدفن .

ولا أدرى بعد هذا ما حدث ، ولكن الذى كنتُ منه على يقين أننى سقطت متعثراً وأنا أنحدر على التابوت ، وسقطت الشمعة كذلك من يدى على الأرض . وحاولت أن أتشبث بالتابوت لأقيَ نفسى السقوطَ على الأرض وانكسارَ بعض أطرافى ، ولكننى على الرغم من ذلك كله سقطتُ سقطةً على الأرض خففَها تشبثى بسطح التابوت ، وقد امتلأ المكان على أثر ذلك بسحاب كثيف من الغبار ، وشظايا الخشب المكسور.

وانلست يدى إلى التابوت حينما تشبثت بغطائه ، ونشبت أصابعى

الحذرَةُ بجسم صلب انتزعتُهُ من داخل التابوت . وفى خلال الخوف والظلام لم أتحقق ماذا كان ذلك الجسم .

وهنا وجدت الشمعةَ التى سقطت منى على الأرض ، وتبينت على ضوئها ماذا حصلت عليه فى يدى من التابوت ... ولشَدَّ ما كانت دهشتى حين رأيت صندوقاً صغيراً من الفضة وقد كساه تراب الأرض وغُبارُ السنين . لقد كان هذا الصندوق معلقاً حول عنق صاحب الجسد المودع فى التابوت .. ولم يكن هذا الجثمان الراقد فى ظلام القبور غير جُثمان « بلاك بيرد » نفسه. . !

ما أشدَّ فرحتى إذن! فقد عللتُ نفسى بأننى قد حصلت أخيراً على الكنز الذى كنتُ أبحث عنه، وأن هذه العُلبة الصغيرَة الفضية لم تكن إلا وعاءً للماسة الثمينة التى كانت أحلامى فى اليقظة والمنام !

وأخذت أحاول فتح هذه العلبة ، فاستعصى علىّ ذلك أول الأمر ، ولكننى عالجت ظهرها بأصابعى ، فانفتحتْ وانكشف لى ما بداخلها . .

ولشد ما كانت حسرتى وخيبةُ آمالى حين لم أجد فيها ماسةً أو لؤلؤة أو أية جوهرة كريمة مما كنت أمنى به نفسى . .. وإنما وجدت قُصاصةً صغيرة من الورق . . !

وساءلت نفسى : ماذا عسى أن تكون هنا هذه الورقة ! ؟ أليس من الجائز أن يكون مكتوباً عليها أو مرسوماً فيها الموضعُ الذى خُبئت فيه

الماسة ؟ وفى أى بقعة من الأرض يمكن أن تكون ؟

وأدنيتُ الورقة من ضوء الشمعة لأتبين ما قد يكون فيها ، فوجدت هذه الأبيات :

لم يُقدَّر لنا الخلود على الأرْ ... ض ولكننا سنغدو حُطاما
إنما عمرنا عليهـا وإن طا ... ل فمقـدارُهُ ثمانون عاما
قَدمٌ فى الحياة من خلف أقدا ... مٍ تشق الدموع والآلاما

* * *

كيف تمشى مثل الكئيب على الأر ... ض وتحت الرُّبى وفوق الدروب؟
إنَّ بئر الحياة ملآى فهل تنـ ... ـزف ماء النعيم قبل النضوب؟
أينما كنتَ فالمنونُ تُوافيـ ... ـك شمالا تكون أم فى الجنوب!

وكذلك كانت ثمرة جهودى وختام آمالى العظيمة ؛ فسأضطر إلى العودة إلى بيتى ، ولن أكون أكثر غِنًى مما خرجت منه ! والحق أننى خرجت من هذه المحاولات كلها بصفقة المغبون . فإن هذه السطور التافهة من الشعر السخيف لم تحمل إلىَّ نبأ عن الماسة ، ولا عن مخبئها المحتمل أن تكون فيه !

وهناك علَّقْتُ العُلبة الفضية حول عنقى ، كما كانت معلقة حول عنق « بلاك بيرد » بين أحضان التابوت ! ووجدتنى مضطرًا إلى العودة إلى منزلى



على وجه السرعة ، وخاصة بعد أن ذابت الشمعة كلها تقريباً ولم يبق منها إلا طرفٌ قليل ضئيل . .

وما كدت أخطو بضع خطوات فى الدهليز ، فى طريقى إلى العودة خارجاً من ظلام المقبرة ، حتى وجدت فتحة القبو محكمة السِّداد، لأن راتسى كان قد سدَّها بعد خروجهم من المقبرة ليُخْفُوا معالم الطريق .

ولم يشغلنى ذلك أول الأمر فى قليل ولا كثير ، فقد حسبت أننى أستطيع أن أنفُذَ إلى وجه الأرض من أى طريق ، أوخلال أى منفذ ، ولكننى حينما أنعمت النظر من قريب استبان لى أن الخروج من هذا الكهف الموحش قد يكون من المستحيل . . . لأن راتسى وزملاءه قد أحكموا السد إحكاماً شديداً ، وغطَّوْه بلوح كبير من أحجار المقابر ، وطلوْهُ بملاط من طين الصلصال المتين . . .

وقد شاءت معاكساتُ الظروف إلا أن تجتمع كلها فى لحظة واحدة ، فهنا ذابت الشمعة كلها تماماً ، وانقطع لهبها الخافتُ الذى كان يمدُّنى ببعض الضوء الضئيل ، وأصبحت فى ظلام كثيف . .

وعلى الرغم مما كنت فيه من حال سيئة فإننى لم أدع للخوف الكثير سبيلا إلى نفسى . . وجلستُ على الأرض أنتظر طلوعَ الصباح ، لعل أشعته – التى ظننت أنها قد تنفذُ إلى باطن المقبرة – تستطيع أن تُعيننى على أن أجد سبيلا لأزيح الملاط والصلصال الذى لصق به راتسى أطراف

اللوح الحجرى الكبير .

وهنا كان التعب قد بلغ منى ، فاستسلمت بعد قليل إلى نوم عميق ...

* * *

ومرت علىّ وأنا غارق فى النوم فترة لا أعلم متى كان طولها ، ولكن الذى أعلمه أننى حين استيقظت كان الظلام الكثيف لا يزال سائداً . وهنا نهضت واقفا ولكن نهوضى وقيامى كان فى تثاقل شديد ، ولم أشعر بشىء من النشاط أو الحيوية مما يمكن أن يكونا فى أعقاب نوم طويل .

وتبينت – وأنا واقف فى خلال القَبْو المظلم – بصيصاً من الضوء يَنفذُ من خلال الأحجار التى كانت فوق رأسى .. وأدركت فجأة أننى كنت نائماً طيلةَ نهار كامل ، بعد أن خرج المهربون فى الليلة السابقة ، لأن البصيص الذى نفذ إلى الداخل كان ينبعث من الشمس الجانحة إلى المغيب . .

وقد كانت المفاجأة ثقيلةً علىّ ، محزنة لى . لأن ذلك يَعنى أننى سأقضى فى هذا القبر الكئيب الموحش ليلة أخرى . . .

وبدأت أشعر بجوع شديد ، لأن لقمة واحدة لم تدخل فمى منذ أربع وعشرين ساعة . واجتمع علىّ مع الجوع ظمأ شديد . ووددت لو حصلت هنا على جرعة من الماء أو أى سائل آخر بأى ثمن.

وتقدمتُ إلى اللوح الحجرى الكبير الذى يغطى الفتحة ، لعلى أستطيع

أن أزيح بأصابعى الملاط والصلصال من حوله، ولكن الملاط كان قد تماسك وتصلب وجف ، وأصبح كأنه قطعة من الحجر الجامد . وظللت ساعةً كاملةً فى محاولة فاشلة ، أتعبت فيها نفسى أشد التعب ، وأصبت فيها أصابعى بأذى غير قليل . . .

وكان من الطبيعى بعد هذا الجهد والتعب أن ألتمس بعض الراحة ، لو أن الراحة كانت سهلة الحصول فى مثل ما كنت فيه . . . فجلست على أرض الدهليز ، وكان آخرُ شعاع من الشمس الغاربة قد اختفى وأنا أنظر إلى وجه الأرض من خلال الشقوق . وهنا أيقنت أن الليل قد طوانى ليلة أخرى فى ظلام كثيف.

وألقيتُ جسدى المنهوكَ مرةً أخرى على الأرض ، ووضعت عينىَّ تحت ذراعى ودفنت رأسى فى صدرى حتى لا تقع عيناى على وحشة الظلام المخيف . وظللت على تلك الحال إلى وقت طويل .

وآمنت بعد ذلك ـــ حينما صحوت ونهضت قائمًا ـــ أن الصمت لا يخرجنى قيدَ شعرة مما أنا فيه ، وأن الصياح قد ينفعنى لعله ينبه إلىَّ أذناً تكون الأقدار قد ألقتها إلى طريقى الكئيب . . وأخذتُ أصيح قائلا :

مستر جلينى ! راتسى ! الزيفير ! هلمُّوا إلى إنقاذى وإخراجى من ذلك الظلام الذى وقعت فيه !

وذهبت صيحاتى وصرخاتى أدراج الرياح ، لو كان فى هذا المكان

المغلق حفنة من ريح ! والحق أن صرخاتى قد ابتلعها القبر كما يبتلع الأموات! فعاودت المحاولة بأصابعى وأظافرى المهشمة لأزيح الملاط الجاف من حول الحجر الذى يغطى الفتحة ، ولكننى فى النهاية عدت إلى النوم مرة ثانية .

وذهبت فى نوم لم أعرف على التحقيق مداه ولا عدد ساعاته ، فقد ضاع حساب الساعات منى فى هذه الحفرة الموحشة ، ولكننى أدركت من الأشعة النافذة من خلال الشقوق أن الشمس قد عادت لتطلع على سطح الأرض لتُؤْذِنَ الدنيا بصباح جديد .

وهنا عدتُ إلى محاولتى القديمة من إزاحة الملاط من حول الغطاء الحجرى الذى فوق رأسى ، ولكن ستاراً من السواد انسدل أمام عينى ، وبدا رأسى كأنه يَدُورُ ، ولم أشعر بشىء مما حولى ، بل لم أشعر بنفسى ، وكل ما عرفته أننى سقطت على الأرض فاقد الشعور . .





٥

فى حانة هواى نوت

لم أكن أدرى شيئاً مما حدث لى عقب هذه الإغماءة التى سقطت بعدها على أرض المقبرة المظلمة وأنا حبيس لا أستطيع الخلاص ، وأسير لا أجد إلى الفكاك من سبيل . .

وصحوتُ بعد هذه الإغماءة الطويلة فوجدتنى راقداً فى سرير لطيف نظيف . . .

وكانت أشعة الشمس الدافئة تنفذ من خلال الشُّبَّاك، فتنصب انصباباً على المكان الذى أرقد فيه . .

لله ما أحلى الشمس وما أبدع ضوءها الجميل !

وهنا اتجهت إلى الله شاكراً له نعمة الضياء والبهاء ..

آه ! ماذا حدث لى ؟ وأين أنا الآن؟ وما الذى أتى بى إلى هذا المكان المشمس المضىء ؟

لقد ظننت أول الأمر أننى كنت فى سريرى الخاص فى بيت خالتى ، وأن ماشهدته فى المقبرة المظلمة من المهربين ومن سجنى فيها لم يكن إلا أضغاث أحلام .

وحاولت أن أنهض من السرير ، ولكننى وجدت الضعف والمرض لم يمكنانى من النهوض .

وظننت مرة أخرى أننى فى حُلم ، ولكننى استبعدت ذلك حينما أحسستُ أن حول عنقى شيئًا معلّقا ، فرفعت يدى المنهكةَ العليلةَ لأتحسسه ، فوجدته العلبة الفضية الصغيرة التى كانت فى تابوت « بلاك بيرد » !

وهنا أيقنت أننى فى يقظة تامة ، ولست فى أحلام ، أو رؤيا منام !

وفُتح باب الحجرة التى وجدت نفسى على سريرها ، وهنا دخل الزيڤير بلوك ، فمددت يدى إليه قائلا فى توسل :

— « الزيڤير ! أنقذنى ! خلصنى مما أنا فيه ! »

ووضع الزيڤير يده على رأسى ، وحيانى بنظرة بدا منها العطف على ملامح وجهه ، وقال لى فى لطف كبير :

— « استمر فى رقادك يا ولدى، فلن يستطيع أحدٌ أن يَمَسَّك بسوء ! واشرب من هذا القدح » .

وكان الذى قدَّمه إلىّ قدحاً من اللَّبن الساخن، وبينما أنا أتناوله أخبرنى أننى الآن أرقدُ فى حانة « هواى نوت » . .

ولم يزد إلزيفير على ذلك شيئاً ، إلا أنه نصحنى أن أذهب إلى النوم ثانية ، وسيخبرنى عن كل شىء بعد حين . .

واحتجت لكى أستردّ قُوّتى وعافيتى إلى عشرة أيام أو تزيد، أقضيها فى السرير ، وكان إلزيفير خلال هذه المدة يقوم بتمريضى والعناية بى ، ويحنو علىّ حنو المرضعات على الفطيم . .

* * *

ولاحظ مستر جلينى — واعظ القرية ومعلِّمُ أطفالها — أننى كنت متغيباً عن المدرسة ، فذهب إلى خالتى ليسألها عنى مخافة أن يكون مرضٌ قد أقعدنى عن الحضور . وأخبرتْهُ خالتى أننى هربت من المنزل، وأنها لا تعلم شيئاً عن مكانى . وذهب مستر جلينى إلى راتسى لعله يستطلع الأخبار عنى ، ولكنه لم يظفرْ منه بشىء قليل أو كثير . .. وهنا ظنَّت خالتى ، وظن معها مستر جلينى ، أننى ركبت إحدى السفن إلى غمرات المحيط . .

ولعلك تذكر أيها القارئ الكريم أن جريننج — أحد قُرَوِيِّى قرية

« رنجستاف » — قال عني يوما إنه كثيراً ما رآنى أدور حول منزل ماسكيو علوّ المهربين ..

والحق أنه هو الذى اكتشف وجودى فى المقبرة من تلك الصَّرخَات التى كنت أطلقها وأنا سجين فى الظلام الكئيب . . فقدذهب يوماً إلى الحانة وأخبر رُوَّادها أنه سمع صراخاً عالياً ينبعث من تحت الأرض فى فناء الكنيسة وزعم أن هذه الصيحات لا بد أن تكون أصواتَ « بلاك بيرد » فى سبيل بحثه عن الجوهرة الضائعة. .. فلما سمع منه إلزيفير ذلك أدرك أن بعض الأشخاص لا بد أن يكون قد انحبس فى الدهليز بعد أن سد راتسى فتحة القبر بحجر كبير. فذهب إلزيفير إلى المقبرة وأنا حبيس تحت الأرض المسدودة فى ظلامها ، فوجدنى مُلقىً على الأرض الرملية ، فاقدَ الوعى ، كأننى بعضُ من فى القبور .

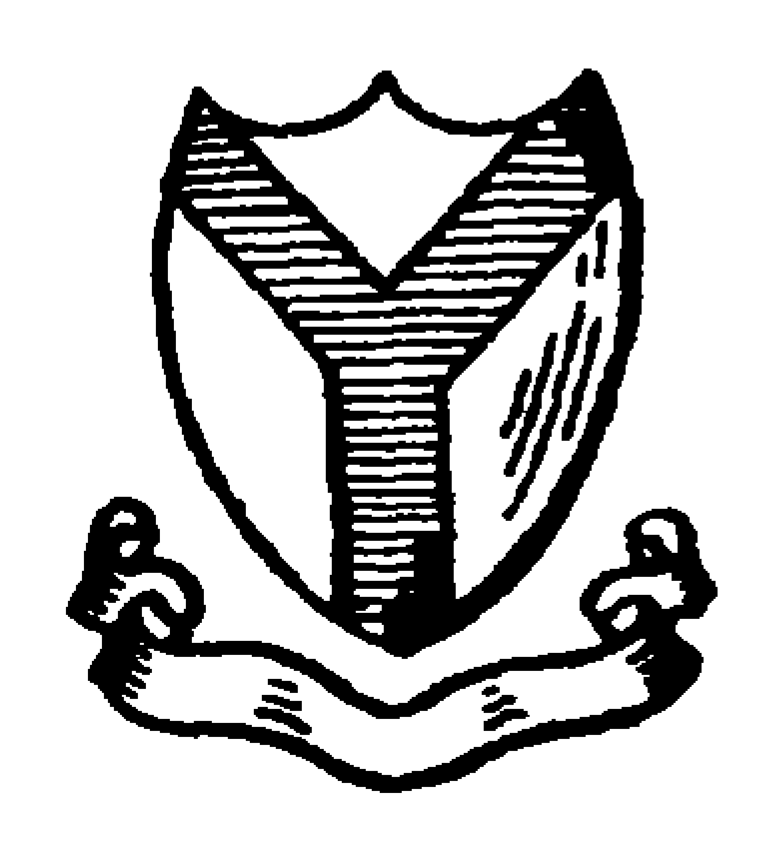
وبالطبع لم يكن الرجلان: إلزيفير وراتسى مرتاحين إلى أننى أعلم مخبأهما الذى كانا يخفيان فيه سلعهما المهرَّبة . ولكنهما كانا على تمام اليقين بأننى لن أكشف سرهما أو أفضح أمرهما . . وعلى الرغم من ذلك فقد عادنى راتسى فى زيارته المتكررة لى وأنا مريض ، وقال لى :

— « جون ! ليس هناك غيرى أنا وإلزيفير اللذين يعرفان أنك رأيت مخبأ بضاعتنا المهربة ، وأنك كنت فيه . . . وواجبك الآن ألا تخبر أحداً بذلك ، وأن تحفظ هذا السر فى الأعماق . »

ولما َعلِمَتْ خالتى بقصّة مَرَضى لم تكلف نفسها َعناءَ السؤال عنى يارتى . وكانت جافة مع راتسى حين ذهب إليها ليخبرها بمكانى فى سرير الحانة.. ولما عادت لى العافية وعدت إلى بيتها استقبلتنى أسوأ استقبال وأمرتنى أن أذهب حيث كنت . . . وكانت الدموع المنهمرة من عينى هى آخر وداع لهذا البيت العزيز . .

وعدت إلى إلزيفير لأعيش معه بدلا من ولده الصريع دافيد . وكان لى فى خلال ذلك بعض التجارب مع المهربين ، وكنت أخرج معهم إلى البحر لنحضر البضائع المهربة فى قوارب إلى الساحل ، ليخبئوها فى مقبرة أسرة موهون . ولكننى على الرغم من جرأتى فى ركوب مخاطر البحر للتهريب لم أجرؤ على الدخول مرة ثانية إلى ذلك السرداب الكئيب . . .

وفى خلال ذلك الوقت لم أدع العُلبة الفضيّة لبلاك بيرد تغادر عنقى ... وقد صارت لامعةً براقة بعد أن نظفتها ، وكثيراً ما تفرست فيها أنا وإلزيفير ، وحاولنا أن نحلّ ما فى كلماتها من ألغاز . . .





٦

طرف الشمعة الذابلة

لقد كان ذلك فى خلال الربيع حينما جاء رجل من إقليم دورشستر وعَلَّق على باب الحانة ورقة تحمل إعلاناً بأن ضابطاً من ضباط حكومة الملك سيزور قرية مون فليت فى خلال سبعة أيام .

وكان هذا الضابط أو الموظف الكبير يأتى مرة كل خمس سنين ليؤجر ممتلكات التاج فى قرية مون فليت ، ولم يكن للتاج فى زمام القرية كلِّها إلا الحانةُ « هواى نوت » ، لأن بقية الأرض كانت مِلْكاً لأسرة موهون .

وكانت المزايدة على أرض الحانة ترسو دائماً كل خمس سنوات على الزيفير أو أفراد أسرته من قبله ، لأن أحداً من الناس لم يتقدم للمزايدة عليهم أو المنافسة لهم .

وحينما وقع نظرى على الضابط وهو على ظهر جواده فى طريق القرية العام ، جريتُ لأخبر الزيفير بمقدمه ، فأرسلنى الزيفير إلى بيت خالتى لأحضر من هناك إحدى الشموع ، ولم أكن دخلت ذلك البيت منذ أن غادرته لأعيش مع الزيفير .. وعلى الرغم من ذلك فقد أعطتنى خالتى الشمعة متمنية أن يبعث ضوؤها نوراً يبدد الظلام فى قلبى !

ورأيت خارج الحانة زحاماً قليلاً من أهل القرية ، كما رأيت فى داخلها الضابط وهو يلتهم طعاماً شهياً كان الزيفير قد أعده له ! وأخذ الزيفير الشمعة وأقامها فى وسط المائدة ، وقاس الضابط قدر أصبعين من طرفها الأسفل ، وثبت دبوساً عند هذا الحد من الشمعة .

وكان القصد من هذه العملية أن من يقدم عطاءه فى اللحظة التى تذوب فيها الشمعة ويسقط الدبوس فهو الذى يرسو عليه استئجار الحانة من أملاك التاج لمدة خمس سنوات . . .

وما كاد الضابط يفرغ من طعامه حتى بدأت المزايدة ، وبدأ الزيفير بعطائه المعهود اثنى عشر جنيها فى العام ، وفتح باب الحانة فجأة ، فإذا السيد ماسكيو يدخل كالسهم متجها نحو المائدة ، فينهض الزيفير واقفاً وهو يوجه إليه الكلام فى غضب :



— « إنك لست صديقا لى يا مستر ماسكيو! وما أكثر سعادتى حين تعطينى الآن ظهرك بَدَلاً من وجهك ! ولن أسمح لك بالجلوس على هذه المائدة . . »

وقد علمت أن هذه المائدة هى التى كان مُسجًّى عليها جسدُ داڤيد الصغير ابن إلزيڤير . .

وَحسبْنا أن العطاء سيرسو على إلزيڤير لأن أحداً حتى هذه الساعة لم يتقدم لمزاحمته ، ولكن ما كاد الدبوس يبلغ حدَّ السقوط حتى سمعنا صوتاً جافًّا يقدم ثلاثة عشر جنيها . . . ولم يكن هذا غيرَ صوت السيد ماسكيو . ولم يهتم إلزيڤير بالنظر إلى ماسكيو ، ولكنه اكتفى بأن يعلن فى صوت واضح قوى أنه يقدم للعطاء عشرين جنيها . . !

واستمر التزايد بين الاثنين حتى بلغ ما قدمه إلزيڤير ١٩٠ جنيهاً فى العام الواحد ، وحينما نطق ماسكيو بمبلغ مائتى جنيه كانت الشمعة قد ذابت وبلغت إلى علامة الدبوس الذى سقط على المائدة ، فَرَسا بذلك عليه المزاد لاستئجار الحانة . . .

* * *

وقد ظننت حينذاك أن إلزيڤير قد يبلغ به الغضبُ حدًّا يجعله يهجم كالوحش الكاسر على غريمه السيد ماسكيو ، ولكنه جلس فى سكون مُطبق ، فلم تنفرج شفتاه بكلمة واحدة . .



واتجه الضابط إلى إلزيفير قائلاً :

ـ « أتحب أن أعطيك فرصة استئجار حانة أخرى من أملاك التاج فى قرية بريد بورت ؟ فهناك مدرسة صالحة لتعليم ولدك» . (وقد وضع يده فى ذراعى وهو يتكلم ، ظاناً أننى ابن إلزيفير) .

ولكن إلزيفير أجابه :

ـ « أشكر لك عطفك أيها السيد ! فإننى حين أترك هذه الحانة لن أستأجر أخرى مكانها . . . »

وغادر الضابط المكان ، فكان صوت حوافر جواده يَصلُ إلى أسماعنا وهو يَطأ طريقَ مون فليت ، بينما جلس إلزيفير وهو مُطْرِقٌ برأسه على المائدة فى تفكير عميق . . .





٧

استراق السمع

وأخذتْ أنظارُ الرجال والنساء تلاحق السيد ماسكيو وتشيّعه بالغضب والسخط الشديد . وكانت عيون المهربين تتتبع دائماً خطوات ماسكيو ليكونوا منه على حذر ، خشية أن يفاجئهم رجاله وهم يقومون بالتهريب .

وجاءني الزيفير ذات مساء وأخبرني أن بضائع مهرّبة في البحر تحتاج إلى إنزالها في البر ، وأن هذه السلع لا يمكن حجزها طويلا في « سانت مالو » ولا يمكن مع رقابة ماسكيو الشديدة إنزالها في مون فليت . واستمر الزيفير يقول :

– « ولهذا كلفتُ رجالَ سفينتنا "بون أڤنتير" ليتجهوا بها إلى الشمال فى مكان يسمى كهف "بايجروف" ، وكان مخبأ للمهرّبين من زمن طويل قبل أن نلجأ إلى مقبرة أسرة موهون . ونستطيع أن نضع البضائع فيه لبعض الوقت .

ولهذا يجب أن نكون هناك فى الخامسة من صباح الغد ، أو قبل شروق الشمس ، وأن نتخذ سبيلنا إلى هناك على ظهور الخيل » .

وفى هذه اللحظة بعينها أحسستُ بموجة من البرد تهب على ظهرى ، فنظرت لأرى إذا ما كان الباب أو الشباك مفتوحا ، وخُيل َإلىّ أن الباب قد انفتح علينا وانغلق حينما اتجهتُ نحوهُ لأنظره ، وخرجتُ إلى الطريق العام ، فكان الظلام حالكا ، ولم أسمع حساً ولا حركة غيرَ صوت أمواج البحر من بعيد . .

وعدت لأؤكد لإلزيڤير أن أحداً كان يسترق السمع على الباب ، وأن من الخير أن نبحث على ضوء الشمعة إذا كان أحد مختبئاً فى الداخل ، فأكد لى أن الرياح هى التى أحدثت الصوت وفتحت الباب . وأخذنا الشمعة وبحثنا على ضوئها ، فلم نقف على أحد .

وضحك إلزيڤير ضحكةً عاليةً ثم اتجه إلىّ قائلا :

– « ليس أمامنا غير أسبوعين لنغادر هذا المكان بعد أن استأجره ماسكيو ، ويُحزننى أن تصبح أبوابه مغلقة فى وجهى بعد أن عاشت فيه أسرتى مائة عام . .

ومع هذا فلن أستطيع أن أغير من الواقع شيئا . وغداً سنذهب إلى بايجروف فإنه مخبأ صالح أمين . . . »

ولم أرُدَّ عليه بكلمة ، فقد كنت أفكر فى أمور أخرى . . .

والحق أننى كنت متعباً ، ولكننى لم أستطع النوم حينما أمرنى الزيفير أن أذهب إلى السرير ، لقد كنت أحسُّ أننى أتعس مخلوق لاضطرارى إلى مغادرة مون فليت ، وأكثر من هذا للترحُّل عن جريس ماسكيو . . .

وعلى الرغم من أننى كنت غلاماً يافعاً فقد نشأتُ على أن أحب هذه الفتاة ، وأخذ حبي لها ينمو ، كما يحب ولدٌ فى مثل سنى فتاة . .

وكنت ألقاها بعض الوقت فى غابة منزلها ، أو أصحبها فى بعض الوقت فى نزهة حينما يكون أبوها فى بعض أموره . .

ولقد صارحتُ جريس بكل شيء . . حتى بذلك السرداب فى مقبرة موهون ، لأننى كنت على ثقة من أنها لا تبوح بسرٍّ أدليتُ به إليها . ولكننى حينما أخبرتها عن البضائع المهربة والتهريب اتجهت إلى قائلة :

— « سأضع دائماً شمعة مضيئة فى شبَّاكى فى ليالى الشتاء . فإذا ما كنت فى البحر يوماً فسترى هذه الشمعة من بعيد . . . إن ضوءها سيكون مناراً هادياً للسفن فى عرض البحر ، ولك أنت أيضا ! »

وكثيرا ما لاحظ الرجال هذا الضوء من شباك جريس، وأسْمَوْهُ « ضوء ماسكيو » . . ولكنهم لم يعرفوا سبباً لإقامته هناك . .

والآن – وأنا على وشك الرحيل من قرية مون فليت – قد يكون مقدوراً عليّ أن لا أرى جريس مرةً ثانيةً . ولهذا صممتُ أن أذهب فى صباح اليوم التالى إلى غابة بيتها لأنتظرها وأفضى إليها بكل شيء . . .

وطلع اليوم التالى بصباح جديد لن أنساه ما حييتُ ، ففى العاشرة كنت فى الغابة ، واتخذتُ لى مكاناً فى حضن التل أرقُدُ فيه وأرقب منه مطلع « جريس » . . . وكان الجو صحواً ، والسماء صافية ، ما عدا سحب الغبار الذى تثيره العجلات فى الطريق . وكانت الأشجار تنبثق أوراقها الصغيرة الخضرُ ، وبراعمُ الزهر الأصفر تتفتح وترتفع برءوسها بين الكلأ النضير . . .

وجلستُ على الكلأ ، وفتحت العلبة الفضية التى كانت دائماً حول عنقى . . وأخذت أقرأ الشعر الذى فيها ، وضحكت من نفسى ومن سذاجتى ، ولكننى كنت مؤمناً أن الماسة النفيسة لا بدَّ أن تكون مخبوءة فى مكان ما ، فأين يا ترى ذلك المكان ؟ وجاءت جريس ، وتحدثتنا عن مغادرة الزيفير للحانة التى كانت مُستقر أسرته مائةً من السنين . وقد أشاع حزنُها على فراقى فرحاً كثيراً فى نفسى ، حينما رأيت مخلوقة مثلها تفكر فى مخلوق مثلى !

وقد حدثتنى عما فعله والدها ماسكيو فى الليلة الماضية ، فقد تسلل من البيت – فى الساعة التى انفتح فيها باب الحانة – بحجة التجول فى

الحديقة ، وكان هذا غريباً ، لأن الليلة بريحها القوية الباردة لم تكن ملائمة للتنزه . . . وعرفت منها أنه عاد إلى البيت بعد ساعة ، ثم أخذ معطفه وقبعته وقال إنه ذاهب إلى قرية « ويموث » على ظهر الجواد . .

وقد أثارت هذه القصة الغريبة كثيراً من الخوف فى نفسى ، فلماذا ركب ماسكيو بغتة إلى هذه القرية ؟ وعلى كل حال فقد ودَّعْتُ جريس لأن الوقت كان متأخراً ، وعُدت من خلال الغابة فى طريقى إلى « هواى نوت » . وكان قلبى الذى يدق دقَّاتٍ عنيفةً يحدثنى بأننى مُشرِف على خَطرٍ عظيم . . .





٨

مصرع ماسكيو

تركت أنا والزيفير حانة «هواى نوت» مبكرين كثيراً عن الموعد الذى اتفقنا عليه، فقد جاءتنا الأنباءُ من رجال السفينة «بون أفنتير» أنهم سيكونون هناك قبل الأجل المضروب بساعتين . وقد أدركَنَا الظلامُ ونحن فى الطريق ، فسِرنا صامتَيْن فى الهواء الدافئ تحت سماء زرقاء . .

وبلغنا رأس « هور » ، وكان أعلى بقعة فى الشاطئ، وكان انحداره وعمودية وجهه المواجه للبحر يجعل اجتياز هذه الواجهة أمراً مستحيلا ، ولكن كان هناك ممر جانبي متعرج يميناً وشمالا يقود إلى أسفل الصخرة العظيمة الانحدار . .

والتقينا هنا بعشرين رجلا متربِّصين و ممسكين بأعنة بعض الخيول وهم يتبادلون الكلام فى صوت خفيض . . وما كدنا نجلس للراحة ، حتى رأيت راتسى يقترب منى قائلا :

— « حَسَنًا يا چون ! ستترك مون فليت أنت والزيڤير، وإنى لأفكر أحياناً فى مغادرتها ، ولكنى لا أعلم إذا فعلت ذلك من الذى يحرُسُ مخابئنا فى مقبرة « موهون »؟

واستسلمت فى خلال الحديث إلى سِنَةٍ من النوم صحوت معها على صَيْحة عالية ، فوقفت وإذا بالسفينة تدنو من الشط فى هدوء. .

وخرج المهربون إلى البر يحملون المهربات على أكتافهم ، وكان وقعُ أقدامهم على الساحل الصخرى يصل إلى أذنى. وكان منظراً غريباً مُعجباً أن أرى الرجال غادين ورائحين على ضوء القناديل يضعون الأحمالَ المفرغة من السفينة على ظهور الخيل . . .

وما كدنا نبلغ قَدَمَ الممرِّ المتعرج لنصعد إلى رأس الصخرة من خلال هذا الدرب حتى رأيتُ شيئاً يتحرك خلف شجرة ، فارتفع بعضُ الصِّياح ، ورأيت رجلا يلوُذ بالفرار ، وهنا ألقى بضعةُ من المهربين ما على ظهورهم من أحمال وبراميل وبدءوا يَجْرُون خلفه. . .

وهنا علمت لماذا كان يجرى هذا الرجل ؛ إنه كان يريد أن يُخلِّص بحياته ، فإن مصيره قد يكون الموتَ لو أنه وَقع فى أيدى المهرِّبين . ولم يكن

أمامه فرصةٌ للنجاة فقد كان خلفه رجلان يسبقان الريحَ فى العدْوِ . . .
ولما تبينتهُ عرفتُ أنه ماسكيو . . .

وما أسرع ما قبضَ الرجلان على ماسكيو ، وعادا به بين قبضتيهما القوية إلى بقية الرجال ، كما يقبض الشرطة على المجرمين . . . ! ولقد أثار هذا المشهدُ نفسى ، وجعلنى أشعر بانقباض كئيب ، فقد كانت هذه أول مرة تقع فيها عينى على رجل يَلقى مثل هذه المعاملة القاسية . .

وسرعان ما ارتفعت الأصوات الساخطة الشامتة قائلة :

— « أطلقوا النار عليه ! اشنقوه ! ألقوه من فوقِ هذه الصخرة الشاهقة ! »

ونزع بعضهم من تحت معطَف السيد الأسير مُسدساً ورَمى به إلى إلزيفير ، كأنه يستفزُّه للانتقام من أجْل ولده الصريع داڤيد حين جاءت ساعة الانتقام ..

ولكن إلزيفير قال فى صوت عميق :

— « تذكرون أننى قلتُ إننى وحدى سأحاسب هذا الرجل ، ولن يمسَّه أحد سواى . لأنه هو الذى قَتَل ولدى ، فأوثقُوه بالحبال واترُكُوه معى هنا ، واذهبوا لشأنكم ، فليس لديكم فُسحةٌ من الوقت تضيِّعونها ، لأن ضوء الصباح على وشك الظهور » .

وانفضَّ الرجال جميعا ، ولم يبق إلا ثلاثة : أنا ، وماسكيو ، وإلزيفير

واستقر المسدس على قدمى هذا الأخير . . .

* * *

وهنا حاولت أن أتبعَ الرجال الآخرين، لأننى خشيتُ العواقب من بقائى هنا بين الغريم والغريم ! واستبقانى إلزيڤير على أمل أن أكون نافعاً له ببقائى معه ، ولكنى لم أدْر أى نفع يمكنُ أن أقدمه إليه فى هذا الموقف العصيب !

ولم ينثن ماسكيو وهو مُوثقٌ فى الأحبال أن يهدد إلزيڤير ليطلق سَراحهُ ، وإلا كان مصيره الشنق باسم القانون !

ورد عليه إلزيڤير كأنه قاض ينطق بالحكم على سجين .

وكان وجه ماسكيو الأبيضُ الممتقعُ ، وعيناه الخاويتان من معانى الأمل والحياة أشبه بملامح حيوان ضعيف قليل الحيلة فى يد الجزّار ... وما كنت قد رأيت على وجهه حتّى هذه اللحظة شيئاً من ملامح ابنته جريس ، كما لم أر على وجهها شيئا من ملامحه . .. ولكن فى هذه اللحظة بدت لى جريس وكأنها تلوحُ لى من خلال عَينى والدها المسكين . . وبدالى مستحيلاأن تقع عليه عينى وهو يُقتل بطلقة مسدس إلزيڤير . .

وأخذ ماسكيو يتوسل إلى إلزيڤير ليطلقه وليخلّصَه من الحكم الذى أصدره عليه بالإعدام بعد دقائق حينما يسقط الدبوس من على شمعة أوقدها ، كما سقط بالأمس يوم المزايدة على استئجار الحانة . .

وكان ماسكيو يسأل الرحمة به ، والعطف عليه من أجل ابنته جريس ، ولكن ذِكْر اسمها كان يزيد حقد إلزيفير لأنه يذكره بولده دافيد الصريع ، على حينَ كان يزيدنى ذكرُ اسمها ألماً على ألمى العميق . وحزّ فى نفسى استعطافه وهو يقول :

— « لا تقتلنى يا مستر بلوك ! فإن لى بنتاً ضعيفة الجناح ، فمن يتولى أمرها بعدى ؟ ومن يرعاها مثلى ؟ أتود أن تُسلَبَ فتاةٌ صغيرةٌ ضعيفة عمادَها الوحيدَ فى الحياة ؟ »

والحق أن عوامل الرحمة والشفقة تحركت فى قلبى ، فتوسلتُ أنا أيضاً إلى إلزيفير لينقذ حياة ماسكيو ، ووقفت لأتقى طلقة النار ، وارتميت على إلزيفير لأمنعه من إطلاق المسدس ، الذى انطلق بعيداً عن أن يصيب الهدف المقصود !

وهكذا نجا ماسكيو ، ولكن نجاته لم تكن إلا إلى أمد قليل . ففى هذه اللحظة ظهر جماعة من جنود المقاومة فى أعلى الممر المتعرج فوق الصخرة ، وكانت أنظار ماسيكو تتجه إلى موضعهم فوق القمة كأنها تتجه إلى السماء شكراً على نجاته من القذيفة .

وقد عرفت أن هؤلاء رجالُ ماسكيو ، وأنه كان يتوقعهم فى هذه اللحظة لمطاردة المهرِّبين حين علم بنبأ السفينة المهربة « بون أفنتير » ، ولكنهم وصلوا متأخرين ، لأن السفينة — كما عرفنا — وصلت مبكرة عن خطتها المرسومة للوصول . .

وسمعنا صوتا آتياً من قمة الصخرة ينادى فى عنف :

— « قفوا مكانكم أيها الرجال! باسم التاج ! أنتم أُسرانا ! » وصاح إلزيفير :

— « واضَيعتَاه لنا! هؤلاء جنود الملك، فإذا متنا فلا بدّ أن يموت معنا ماسكيو »

وجرى نحو ماسكيو ليفرغ فى رأسه رصاصة من مسدسه،ولكن القدر شاء أن تنطلق رصاصة من رصاص الجنود الواقفين فوق قمة الصخرة العالية ، وأصابت الرصاصة ماسكيو فسقط على الأرض وبين حاجبيه ثقب صغير ينزّ منه الدمُ الأحمر . . .

واحتميت بجدار الصخرة القائمة كما نصحنى إلزيفير ، حتى يخطئنى رصاص الجنود ، ولكننى أحسست بغتة بألم عنيف حاد فى رجلى اليسرى . فالتفت إلزيفير نحوى وهو يقول:

— « . . وهل أصبت أنت أيضا يا چون ؟ »

وأخذت الطلقات تتوالى على مقربة منا ، بينما التقطنى إلزيفير بيديه كأننى طفل صغير ، وأسندنى إلى ظهر الصخرة ، وقايةً من الطلقات...



٩

صعود عسير ، وانحدار إلى كهف عظيم

هنا — وليس معنا إلا مسدس خالٍ من الطلقات وتحت أقدامنا ماسكيو القتيل — قال لى إلزيڤير :

— « لقد كسروا رجلك يا چون ، ولا يمكننا أن نصنع الآن شيئاً لعلاجك ، وأخشى أن ينحدر إلينا الجنودُ من قمة الصخرة فيقبضوا عليك حيًّا ، ويُرسلوك إلى دورشستر لتُشْنَقَ هناك ، وأمامنا الآن خمسَ عشرةَ دقيقةً يبلغنا فيها الجنود ، ولن تستطيع أن تقاوم أوتحارب وأنت مكسور الرّجل » . وهنا وددت لو أعود إلى مون فليت ،وأجلس فى بيت خالتى

مرة ثانية ! وأشار عليّ الزيفير بأن أتحامل على نفسي لنصعد معاً في ممر ضيق وعر مجهول لايعرفه جنود المقاومة ، يُفضي بنا إلى « رأس هور » واقترح عليّ أن يحملني على ظهره! وسرعان ما قبلتُ اقتراحه ، مؤثراً — حتى على احتمال الخطر — أن أموت على مهاوي الصخور ، بدلاً من أن أقع في يد الجنود . . .

وحملني الزيفير أولا تحت ذراعه ورأسي متجه نحو ظهره ، وهنا ألقيت نظرات أخيرة على وجه ماسكيو وهو منطرح على الأرض ووجههُ إلى السماء . وما كدت وأنا على ظهر الزيفير أنظر إلى المنحدر وأرى ذلك المشهد المروِّع حتى فضلت البقاء تحت احتمال الأسر على الصعود في ذلك المرتقى الرهيب !

وأغمضتُ عيني حتى لا أقعَ على ذلك المنظر الخطر ، وكنت أحسُّ خُطوات الزيفير وهو يُثبتها ويقدرُ لها مواقعها حتى لا نسقط معاً في هاوية ليس لها من قرار ..

وكنت وأنا مغمض العينين أعرف أننا نقترب من قمة الصخرة الشاهقة باشتداد الريح . . . وكانت خطوات الزيفير بطيئة ، ولكنها ثابتة مُحكمة . . . وبلغنا موضعاً من الممر لا يتسع لإلزيفير وأنا على ظهره ، فألقاني برفق على الأرض ، وظللت أزحف على يدي وركبتي حتى اجتزته في سلام .

ووقفنا فوق ذلك المنحدر السحيق ، فرأيتُ البحر الأزرق المياه يترامى إلى مدى بعيد .

وبعث المنظرُ الرهيبُ فى نفسى الذعر ثانيةً ، وصحتُ صيحة الرعب والفزع ، فنصحنى إلزيفير أن أغمض عينى حتى نتمكن من الصعود... ولم يكن بيننا وبين القمة إلا أربعون متراً ، فأخذ إلزيفير يشجعنى قائلا :

— « فيم الخوف يا چون ، وليس بيننا وبين القمة إلا مدى قريب؟ »

ولم تُجْدِ محاولات إلزيفير ليجمع أطراف شجاعتى المتفرقة ! وما هى إلا أن نبهنى قائلا :

— « انظر يا چون ! إن الجنود قد بلغوا المكان الذى كنا فيه حيث جثة ماسكيو ، ولن تمضى دقيقة واحدة حتى يعثروا علينا ! »

وكانت هذه الكلمات كافية لأن تنزع الخوف من قلبى انتزاعاً! والحق أن مخاوفنا الكبار لها سلطان عظيم على صغار المخاوف . . . فهنا نسيت الهوة السحيقة والسقوط من على الصخرة المنحدرة العالية ، وذكرت خوفى من الجنود !

وهكذا حركنى الخوف الأكبر والفزع الأعظم من جنود المقاومة ، فما هى إلا دقائق خمس حتى كنا على قمة الصخرة الشماء !

* * *

لقد كنا لانزال فى وَضح الصباح ،وكانت أشعّةُ الشمس تَسْطع



على سطح البحر ، فجلسنا فوق القمة على بعض العشب ، نُريح أجسامنا المنهكة من ذلك المرتقى العسير . . .

وجلس إلزيفير يُقنعنى بالمضى إلى كهف عظيم صالح لأن يكون مخبأ لنا ، واسمه « كهف يوسف » ، ويقع على مسافة سبعة أميال مما نحن فيه الآن .

ومضينا فى طريقنا إلى الكهف – على الرغم مما كنت أعانيه من ألم رجلى – وفاجأنا صوت طلق نارى ، فإذا بغلام يقترب منا فى ذلك المكان الذى لم نتوقع فيه أحداً غير الجنود. . .

وسأله إلزيفير عن سبب مجيئه إلى هنا فأجاب بأنه يصطاد بعض الطيور لحساب أحد المزارعين المسمى « توب » . وطلب منه إلزيفير بعض البارود أو الرش لنصيد أرنباً لعشائنا . ولكن الغلام أجاب :

– « ليس معى إلا قليل من البارود ، ويجب أن أحتفظ به لصيدى ، وإلا أخذت "علقة طيبة !"

وأغراه إلزيفير بقطعتين من النقود فأعطاه الغلام كل ما معه من البارود ! ثم أغراه بقطعة أخرى من الذهب لها بريق ، فأخذها الولد وترك الرش والبندقية فى يد إلزيفير !!

والحق أننى لم أثق فى هذا الغلام من أول الأمر ، فقد رأيته بعد ذلك وهو ينحدر ببطء ، ثم أخذ يجرى مسرعا ليخبر جنود المقاومة بأنه

عثَر على بعض المهرّبين . .

ورأينا من الحرص أن نمضيَ، ولم يكن أمامنا غيرُ ممرٍّ صغير ضيق ، فحملنى الزيفير على ظهره ثانية ، وهو مُستند دائماً إلى جدار الصخرة . وبلغنا أرضاً مملوءة بالكلأ والحشائش ، حتّى انتهينا إلى تل صخرى بدَتْ فيه قِطَعٌ منحوتة من الحجارة التى كان الرجال يقطعونها لبناء البيوت . وكانت المنازل الصخريه القائمة هناك مهجورة من سكانها . . . وهنا رأيت فتحة عميقة فى الأرض، وأمامها درجات منحوتة فى الصخر تقود إلى ظلام . . .

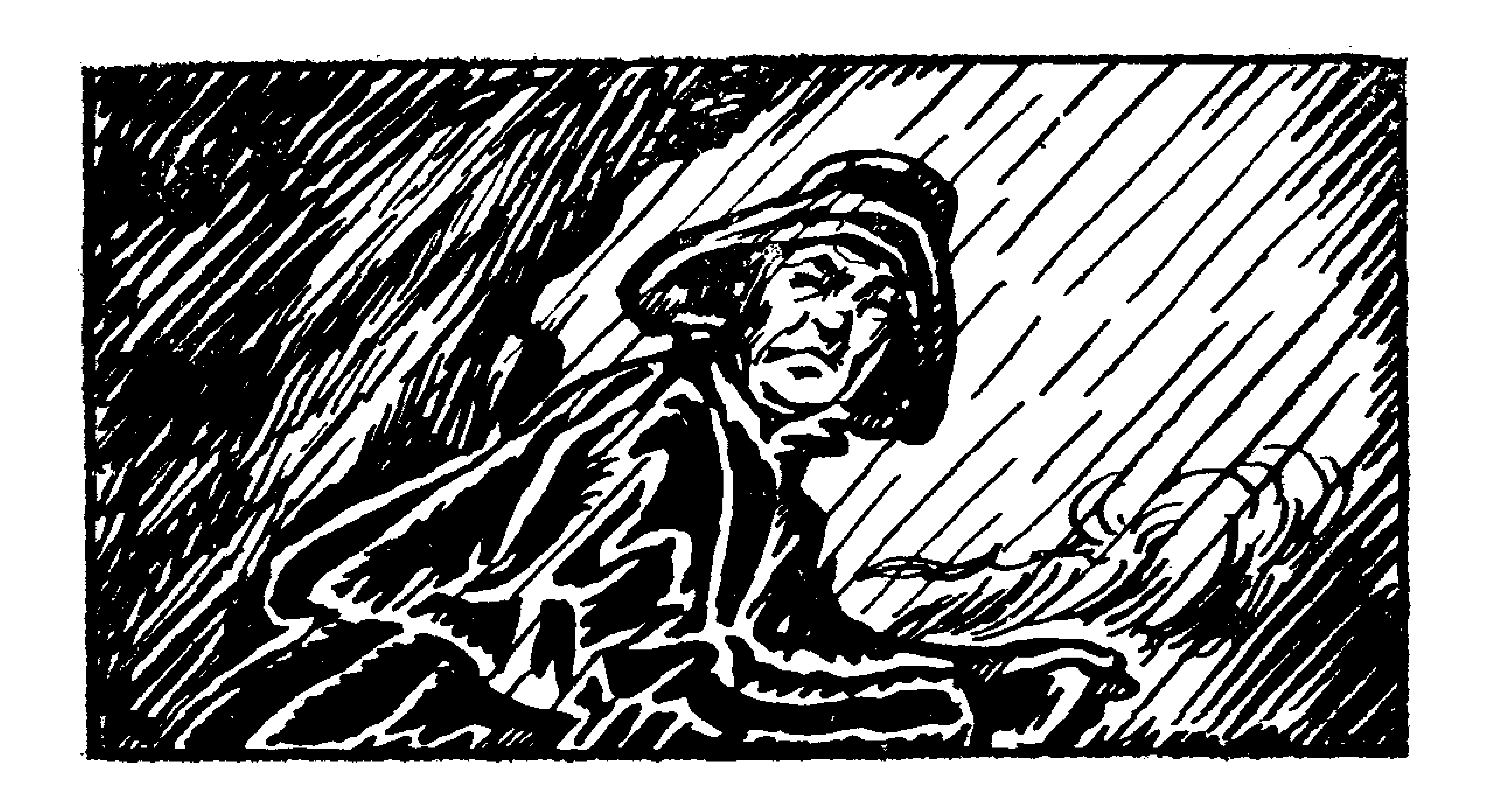
وألقانى الزيفير من على ظهره قائلاً :

ـ «هذه هى فتحة كهف يوسف ! ويجب أن نختبئ هنا حتى تشفى رجلك ، ولن يهتدى إلينا أحد فى المكان ، لأن هذه الدرجات تقود إلى ممر طويل منحوت فى الأرض ، وفى نهاية الممر كهف ينتهى طرفه إلى البحر . . . وسيكون مخبؤنا فى جوف ذلك الكهف العميق ! » .

ودخلنا من الدرج إلى الممر ، حتّى غدونا فى ظلام حالك ، ولم يكن حولنا ولا فوق رءوسنا إلا الصخرُ المنحوتُ . . وكان الزيفير يجتاز بنا السرداب الضيقَ وينحدر بنا إلى فتحة ضيقة على اليمين فى يسر ومعرّفة بالمكان . ولكنه كان أحيانا يتركنى ويذهب قدماً يتحسس المكان ، ثم يعود إلىّ ثانية لنمضى فى الطريق .

وأخيرا انتهينا إلى كهف كبير مُظلم يتسرَّب إليه بصيص من ضياء ينفُذُ من فتحة بعيدة . وهنا كانت برودة الجو وطيبُ الهواء يُشعرنى بأننى من مياه البحر على مدى قريب . . .





١٠

فى كهف يوسف

هنا أرقدنى إلزيفير على أرض رملية جافة قائلا :

— « يجب أن ترقد هنا يا چون لشهر أو اثنين .. إنه ليس مَرْقَداً طَيِّباً ولا سريراً ناعماً ، ولكنى كم اضطجعت على مراقدَ أسوأ من هذا بكثير ! »

وظللت عشرة أيام فريسةً لألم شديد ، واشتد علىَّ المرض حتى كنت أهذى بما لا أعى ، ولكن إلزيفير كان كثير العناية بى ، فلم يتركنى وحدى إلا حين كان يخرج لإحضار الطعام .

ولم يكن أحد يدرى بمكاننا هنا غيرُ راتسى ، الذى كان يحضر لنا

الزاد من وقت لآخر ، وكان يقص علينا أولا بأول ما يحدث فى مون فليت .

وكان جنود المقاومة يبحثون عنا كما أنبأنا راتسى ، واتهموا الزيفير بأنه هو الذى قتلَ ماسكيو ، وأعلن قائدهم جائزةً قدرُها خمسون جنيهاً لمن يعثر على الزيفير ، وأخرى قدرها عشرون جنيهاً لمن يعثر علىّ .

وعلمنا أن الغلام الذى أطلقَ الصوت النارى وأخذنا باروده وبندقيته هو الذى أعطاهم عنا بعض التفاصيل .

وأخذت الأيام تمضى ، ويُشارك مرورها فى شفائى قليلا قليلا حتى استطعتُ أن أترك فراش المرض . فاقترح على الزيفير أن نهرب من إنجلترة إلى فرنسا على ظَهر سفينة التهريب «بون أفنتير» ، ونظل هناك مختفين حتى يتوقفَ الجنودُ فى البحث عنا.

وذهب الزيفير فى ليلة عاصفة من ليالى الربيع إلى ثغر «پول» ليتفق مع رجال السفينة التى ستحملنا ، وجلستُ أنا خارج الكهف أرقب الأمواج وهى تتكسر عند قدم الشاطئ الصخرى :

وأخذت الأفكار والهواجس الغريبة تتوالى علىّ ، فقد خُيل إلىّ أن «ماسكيو» بَدا أمامى يتفرسنى ضاحكاً . . . ودخلت الكهف فأحضرت شمعةً وأوقدتها وقرأت على ضوئها الأبيات المكتوبة فى العلبة الفضية . . . العلبة التى وجدتها فى تابوت بلاك بيرد .



وهنا سمعت حسَّ إنسان قادم ، ولم يكن إلزيڤير ، لأن الوقت لم يكن يسمح لعودته من پول ، ولأنه كان دائماً يغني أغنية خاصة جعلها علامةً بيني وبينه . وأخذت البندقية من جانبي استعداداً لما قد يكون ! ولكنني اطمأننت حينما وجدت أنه راتسي . .

وأخذ يحدثني في فرح ، ونُقَطُ ماء المطر تتساقط من فوق معطفه ، ومدَّ يده إليَّ في تلهف وهو يقول :

— « ما أشد الريح الليلة يا چون ! لقد كنتَ جديراً أن لا تتحمل معنا كل هذه المصاعب والمخاطر ! كان الله في عوننا الليلة ! »

وهنا رددت عليه قائلا:

— « كان الله في عَوْن البحَّارة المساكين! » ، فأجاب في رفق :

— « نعم ! ففي صباح الغد سيجتمع على شاطئ مون فليت حُطامُ السفن والقوارب التي حطمتْها الرياح ! »

وجمعنا بعضَ الحطب والخشب ، وأوقدنا ناراً نتدفأ بها ، ونتسامر حول لهبها اللذيذ . وأخذ يستعيد ذكرى حادث وقع هنا منذ أربعين عاماً ، حيث كان مبتدئاً في التهريب ، فرأى هو ورفاقه سفينة تغرق في العاصفة ، ولم ينج من ركابها رجل أو امرأة أو طفل ، لأن المطر المنهمر والظلام الدامس ، والريح الشديدة لم تساعد واحداً على النجاة .

وأخذ الحديث يجرنا إلى المأزق الذي كنت فيه أنا وإلزيڤير في هذا

المخبأ ، فأخبرت راتسى بعزمنا على الهرب إلى فرنسا ، وأن إلزيڤير ذهب إلى ثغر « پول » ليعد لنا السفينة « بون أڤنتير ». وهنا أخذ راتسى يقول :

— « إن قلبي الليلة منقبض يا چون ! لقد ولَّتْ أيامُ السعادة ، ولن يعود إلزيڤير ثانية إلى مون فليت ، فقد أغْلِقت حانة "هواى نوت" نهائياً فى وجه إلزيڤير ، ولم يبقَ بعدَ مقتل ماسكيو إلا ابنتُهُ النحيلة الرقيقة كالزهرة . . . لقد أخبرها الجنود أنك أنت و إلزيڤير قتلتما أباها . . . ولكنها لم تصدق ذلك ، مُنكرة أنك يا چون تُقر مثل هذا العمل الشنيع . »

وكانت هذه الكلمات أحلى فى أذنى من أى لحن موسيقى جميل ! وشعرت بإنسانيتى ورجولتى ، فصممت — فيما بينى وبين نفسى — أن أزور جريس قبل أن أغادر الوطن إلى فرنسا ، وأن أخبرها بكل شىء !

واستمر راتسى فى حديثه قائلاً :

— « نعم هى نحيفة وباهتة اللون ، ولكنها جميلة يا چون! ولو أنها كانت امرأة مكتملة الأنوثة ، وكنتَ أنت رجلا كامل الرجولة لكنتما خير الأزواج ! »

ولمح راتسى الشعر المكتوب فى العلبة الفضية ، فأخذ يقرؤه :

لم يقدَّر لنا الخلود على الأر ض ولكننا سنغْدو حطاما
إنمـــا عُمْرُنا عليها وإن طا ل فمقـــداره «ثمانون» عاما
«قَدَمٌ» فى الحياة من خلف أقدا م تشقُّ الدمـــوع والآلاما

كيف تمشى مثل الكتيب على الأر ض «وتحت» الربى وفوق الدروب؟
إن «بئر» الحياة ملآى فهل تنـ زف ماءَ النعيم قبل النضوب ؟
أينما كنت فالمنـــون تُوافيـــ ـك «شمالا» تكون أم فى الجنوب!

ولاحظ راتسى هذه الكلمات المكتوبةَ بحروف كبيرة حيث يَجبُ أن تُكتب بحروف صغيرة ، فنبهنى إلى ما لم أكن منتبهاً إليه . . . نبهنى إلى أن الكلمات الكبيرة تتكون منها هذه العبارة : (ثمانون قدم تحت بئر شمالا) . آه ! لقد كان اللغز من البساطة بحيث عجبت كيف لم أهتد إليه من قبل ! والآن عرفت ! إن الماسة الثمينة فى بئر فى الشمال على عمق ثمانين قدماً . . .

وودعنى راتسى وانصرف ، فبقيت وحيداً فى الكهف وأمامى النار التى كنا نتدفأ بها ، إلى أن غلبنى النعاسُ ، فنمت حيث كنت . وعاد إلز يفير فوجدنى نائمًا والنار ملتهبة ، فلما صحوت مزح معى قائلا :

ـــ هذه هى المرة الثانية التى أراك فيها نائمًا ، إنك لا تصلح أن تكون حارساً يقظاً ! »

وكنت لا أزال أفكر فى الشِّعر ، وفى الحل الذى اهتديت إليه . وهنا قال لى :

ـــ « الحق معك يا چون ! ولكن أيةُ بئر تكون ؟ ليس فى قرية مون فليت بئر بهذا العمق ، لعلها فى قلعة كاريس بروك حيث كان با لك بيرد موكلاً بحراسة الملك السجين . فتعال بنا هناك! وهناك بعض أصدقائى من

أهل القرية حيث نستطيع أن نختفى عندهم فى أمان من عيون الباحثين...»

وهكذا صممنا على أن تنقلنا السفينة « بون أفنتير » إلى قلعة كاريس بروك ، بدلا من أن تحملنا إلى فرنسا . . .

وما أصبح الصباح حتى أسرع إلزيفير فطلى وجهى بصبغ نحاسى اللون ، وحلق لحيته التى كان يرسلها ، ولبسنا ثياب الفلاحين.

وأخذنا نتبادل النظر ونحن فى هذه الملامح والثياب التى غيرتنا تمام التغيير ، فلا يستطيع أحد أن يعرفنا . . .

* * *

ولم يبق غير يومين اثنين لنغادر هذا المخبأ الذى كنا نختفى فيه ، وكنت حريصاً على أن أذهب إلى مون فليت لأتزود بنظرة من جريس قبل الرحيل . ولكن كيف أعلن هذه الرغبة لإلزيفير ؟

وانتهزت فرصة جلوسنا مثل طائرى بحر على الصخرة خارج الكهف ، نرقب الشمس وهى تجنح إلى الغروب ؛ فلما دخلنا إلى الكهف طلبت منه أن يأذن لى بالتجوال قليلا بعد حبسى فى الكهف مكسور الرجل لمدة شهرين .

وأدرك إلزيفير ما أرمى إليه ، وإن كان حاول أن يصرفنى إلى أننى أقصد رؤية خالتى مسز أرنولد ! واتفق معى على أن المرء منا حين يشغف بحب الديار أو الجدران ، فإنه فى الحق يحب من سكن الديار . . .

واتفق معى كذلك على أن جريس فتاة طيبة ، حارةُ القلب ، وأنها ليست من أخلاق أبيها فى قليل ولا كثير ... وأبدى فرحه لأن مصرع والدها ماسكيو لم يكن على يديه بلى على يد الجنود . . . .

وأخيرا أذن لى ، على أن نخرج معاً فى بعض الطريق ، حيث يمضى هو لأخذ شىء تركه له راتسى فى بعض الطريق . وأمضى أنا إلى مون فليت ، أو على الأصح للقاء «جريس » .

وعند مُفْتَرَقِ الطرق ناولنى إلزيڤير المسدس الذى كان يملكه ماسكيو ساعة القبض عليه ، ثم قال لى :

— « خذ هذا يا چون ! ولاتستعمله إلا فى ساعة الخطر العظيم ، وهنا لا تطلِقْهُ إلا لتصيب الأقدام ، لا مَقاتل النفوس ! »

وما أسرع ما رأيتنى قريباً من غابة قصر ماسكيو ، والحانة القديمة هواى نوت ، ونهر فليت ، ووراء ذلك كله البحر المنبسط الرحيب . .

ولا أستطيع أن أقول كيف كان مؤثراً — وجميلا فى الوقت نفسه — أن ألقى ثانية نظرةً على قرية مون فليت !

ودققتُ الجرس على باب قصر ماسكيو ، فسبق صوت جريس إلى أذنى ، وعرفت خطواتها اللطيفة على الدّرج قبل أن تفتح الباب . .

وأنكرتنى جريس وأنا فى ثياب فلاح صغير وفى وجه مصبوغ ، ولكننى خاطبتها فى صوت خفيض :



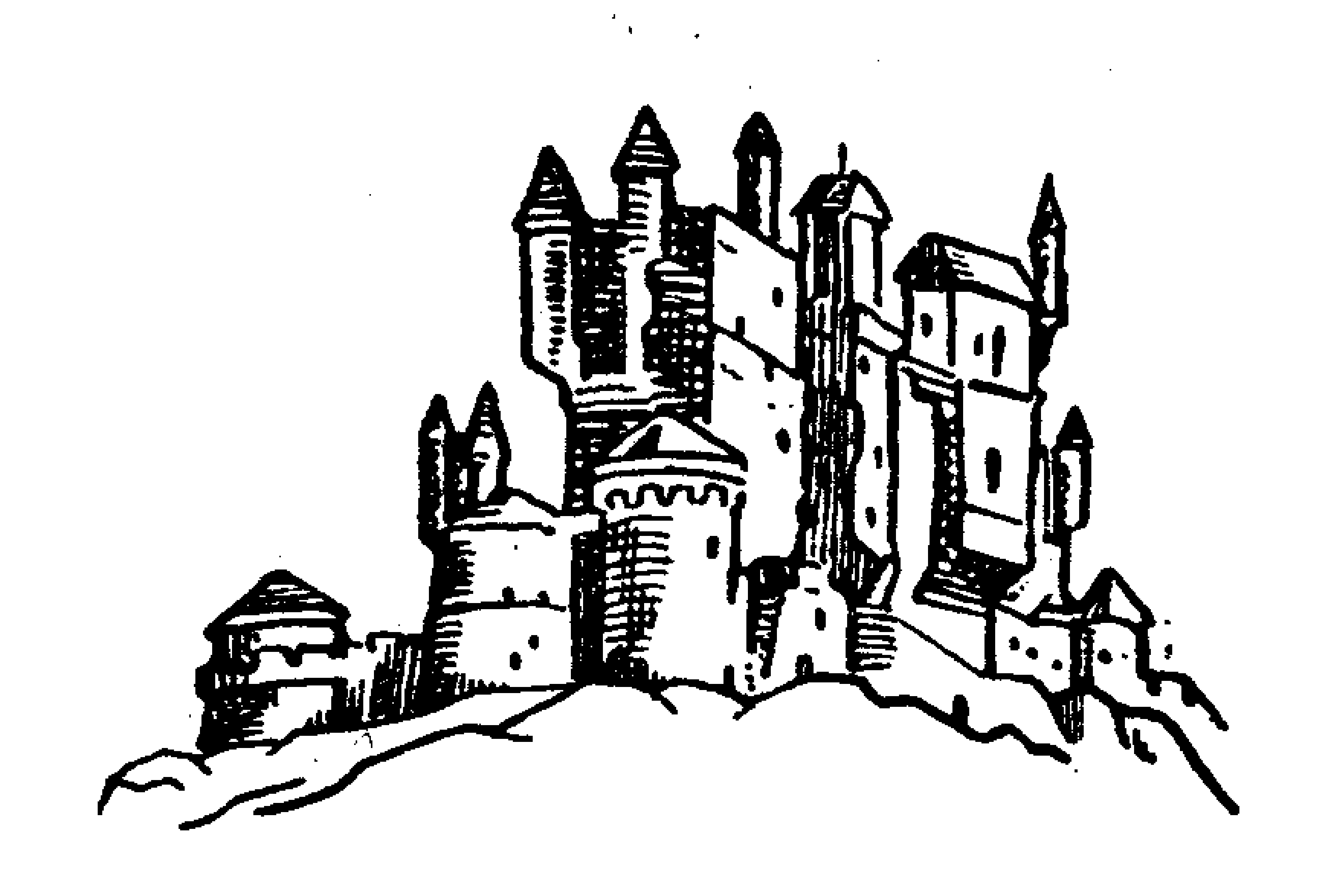
— « جريس ! أنا چون ترنشارد ! جئت هنا لأراك قبل أن أغادر مون فليت ، وعندى لك كلام كثير ، فهل معك فى القصر علينا رقيب؟»
وقد أعجبنى هدوؤها وثباتها فى مثل ذلك الموقف الرهيب ، وانتحينا ناحية فى الحديقة ، وأخذ كلٌ منا يتطلع فى وجه صاحبه ، وكان من أمتع السرور عندى أن أراها ثانية . وقد غيرت الآلامُ بَعضَ إشراق وجهها ، فبدَتْ حزينةً ضامرة . . .
وجرّنا الحديث إلى القصة الحزينة لمصرع والدها على يد جنود المقاومة ، فكانت عَبَرَاتها تتساقط على خديها خلال الحديث ، ولكنها نهنهت عينيها بعد قليل . . واطمأنت على رجلى التى كان قد أصابها رصاصُ الجنود . . .
وأخذتُ أحدثها عن الكتابة فى العلُبة الفضية ،وأريتُها إياها لأنها لم تكن رأتها معى من قبل .
وأخبرتُها أننى ذاهب بعيداً لأبحث عن الماسة الثمينة ، حتى أعُودَ أغنَى رَجلٍ فى البلاد !
وهنا قالت لى « جريس» :
— « لا تشغل بالك كثيراً بهذه الجوهرة يا چون! لقد كانت فى حوزة رجل سَوْءٍ ، وأخشى إذا وقعت فى يدك أن لاتجلب لك خيراً ، أو تدنيك من السعادة . . . فإذا وجدتها فأنفقها فى الوجه الذى أراده بلاك بيرد تكفيراً عن سيئاته . . أنفقها فى مساعدة الفقراء ، ومعاونة المحتاجين ، وإلا فستكون شؤماً عليك . . . »

ولم أستطع أن أحبس ضحكةً من فمي ؛ ولكنني لم أقل لها لماذا أود أن أكون أغنى رجل في البلاد ..

ولو كشفتُ عما بنفسي لعرفتْ أنني أود ذلك لأستطيع زواجها . . .

وقضيتُ تلك الليلة مع جريس بعد مشي الطويل المتعب من الكهف ، ولما أصبح الصبح كانت جالسة بجانبي . وحان وقت رحيلي ، فزودتني بالخبز واللبن واللحم ، وودعتني قائلةً :

— « ستحملكَ غمراتُ البحار يا چون ، وقد تعود ثانية إلى مون فليت . وسيظل الضوء الذي أضعه في نافذتي كلَّ ليلة مُوقداً ، لتعرفَ حين تراه أن جريس لا تزال تذكرك ! فإذا لم تَرَهُ فاعلم أن الموت قد طواني . لأنني سأظل أذكرك حتى تعودَ ثانية . . . »





١١

بين القلعة والبئر

عدتُ إلى كهف يوسف لأقضى فيه آخر ليلة لى قبل الرحيل إلى قلعة كاريس بروك . وأرسلت السفينة بون أڤنتير قاربها إلى الشاطئ ليحملنا على ظهرها ، فوجدتُ عليها جماعة من الرجال المهربين الذين عرفتُهُمْ فى مغامراتى السابقة . وقد تحدثوا معى فى لطف كبير . ومضت بنا السفينةُ حتى بلغنا ميناء « كاو » ومنه ترجلنا إلى قلعة كاريس بروك .

وأقمنا فى حانة « بوجل » وشعرتُ بالراحة حينما نمتُ على سرير مُريح بدلا من نومى شهرين كاملين على الرمل الجاف فى كهف يوسف. وكان إلزيفير خلال الوقت كله يبحث فى طريقة ندخل بها القلعة ،

ونصل بها إلى البئر التى قد تكون الماسة مخبوءة فيها .

واستطاع إلزيڤير أن يتفق مع أحد الجنود من حرس الحصن على أن ندخل سراً ، وصارحه بأمر الجوهرة ، فصرح لنا على أن يقاسمنا بنصيب الثلث فى كل ما قد نجده هناك .

وتسللنا إلى الحصن فى ثياب العمال ، بحجة إصلاح بعض الخلل فى جدار البئر ، وكان المطر ينهمر طول الليل ، واستمر حتى الصباح. وظللنا نجتاز فناء إلى فناء ،وساحة إلى ساحة ،مارين بأبواب كبيرة متينة محكمة ، حتى وصلنا إلى مكان البئر .

ولا أكتمك يا قارئى العزيز أن الحارس الذى مكن لنا دخول القلعة على أمل مشاطرتنا الكنز المخبوء لم أطمئن إلى شكله ولا إلى نظراته ..

وقد قيل إن الجوهرة قد تجلب النحس على من يحصل عليها ، فمن الجائز أن يكون النحس على يد ذلك الرجل إذا ما عثرنا عليها !

ورأينا بجانب البئر دلواً كبيرة وحبالا طويلة ، واقترح إلزيڤير أن ينزل هو فى الدلو ، وأن أظل أنا على سطح الأرض بجانب الحارس . . . وارتاح الحارس لهذه الفكرة الطيبة النية .. ولكننى اعترضت عليها استيحاشاً بالرجل ، وانعداماً لثقتى فيه ! فلم أرد أن أبقى معه وحيداً ، بينما إلزيڤير معلق فى قرارة البئر !

وفطن إلزيڤير لغرضى ، فاتفقنا على أن أنزل أنا فى الدلو ، على الرغم من معارضة الحارس .

وأردت أن أتأكد من نظافة البئر وخلوها من الهواء الفاسد الذى قد يعرضنى للموت مختنقاً ، فلم أكتف بما قاله الحارس من أنه اختبرها بالأمس بشمعة مضاءة دلاّها فيها ، ليرى إذا كان هواؤها صالحاً للاستنشاق أم غيرَ صالح . نعم لم أكتف بما قاله الرجل لعدم ثقتى به ، بل كلفته أنْ يُحضر شمعةً وأوقدناها ودلّيْتُها فى البئر بنفسى ، فما حكّ جلدك مثل ظفرك ! وخاصةً إذا كانت مسألة حياة أو موت لى . . !

ورمى الحارسُ بحجر فى البئر أمامى قبل أن أنزل ، وأخذ الحجر يصطكُّ فى الجدران الصخرية للبئر ، حتى سمعنا صوت سقوطه على مائها ، وأخذ ينظر إلىّ نظرة لئيمة قبيحة ، كأنه يريد أن يذكّرنى بأننى إذا هَوَيْتُ فى البئر فسيكون مصيرى مثل ذلك الحجر !

وربّتَ إلزيفير بيده على كتفى فى حنان قائلا :

— « أمتأكد يا چون أنك تستطيع النزول فى البئر ؟ لَوددتُ أن أفْقدَ كل كنوز العالم ولا أفقدك ! »

وجلست فى الدلو التى أخذت تتدلى ببطء لأتمكن من فحص جدار البئر ، وكان الظلام يشتد كلما بعدْتُ عن وجه الأرض ، وكان إلزيفير قد أعدّ حبلا طوله ثمانون قدماً لأقيس به الموضع الذى يجب أن أقف عنده للبحث عن الماسة فى جوانب الجدار ، وكانت مبنيةً من قطع مربعة صغيرة من الحجارة ، فلم أتبيّن منها حجارةً معينةً ، لأنها كلها كانت متشابهة .



و بعد محاولات عنيفة منى ، وصيحات كنت أسمعها من سطح البئر ، وصرخات كنت أتخيلها تصعد من قاع البئر كأنها أصوات الموتى ، يرقبون الجوهرة المخبوءة — بعد ذلك كله لمحت حجراً يحمل علامة Y وهى شعار أسرة موهون ، فأيقنتُ أن هذا هو الموضع الذى أبحث عنه .

وكانت الدّلو معلقةً بى فى وسط البئر ، حيث لا أستطيع أن أصل بيدى إلى الحجر فأنزعه من الجدار ، فحاولتُ أن أقترب وناديت على إلزيفير والحارس ليقربا الحبل من الحائط ، لأزيل ما حول الحجر من الملاط الشديد الصلابة .

واستطعت أخيراً أن أنزع الحجر ، وأن أمد يدى فى الثقب الذى خلفه ، فإذا حقيبة صغيرة ، وإذا بداخلها جسم صلب كروىّ . . . وما كان أشد فرحى حين عثرتُ على الكنز العظيم !

وما كنتُ رأيت فى حياتى الماس قبل ذلك ! والآن حصلتْ فى يدى ماسةٌ كبيرة ، أخذت تلتمع على ضوء الشمعة التى كنت أمسك بها . ولم أستطع وأنا معلق فى ظلام البئر أن أحبس عينى عن النظر إليها . . وأخذت الأحلام تطوف برأسى عن سعادتى المقبلة ، وعن عودتى إلى مونفليت .

وجذبنى إلزيفير والحارس إلى أعلى ، وكانت الدّلو فى صعودها أسرع مما كانت بى فى الهبوط . . وهنا تخيلت صوت « جريس » الرقيقَ الحزين يناديني : كن حذراً يا چون ! وإلا فستكون الماسة نحساً عليك . .

وما كدت أقترب من سطح الأرض حتى صاح بى الحارسُ يطلب منى الجوهرة ، وتوقّف دفعةً واحدة عن جذب الحبل ، حتى أدفعَ إليه الماسة بيدى ، وخفتُ إن أنا أعطيتُه الماسة قبل أن أصعد على وجه الأرض أن تتكرر معى مأساة « مصباح علاء الدين » !

وطال الجدال بينى وبينه ، وأنا معلق فى الدّلو قريباً من سطح الأرض ، فتدخل إلزيفير ليقف الرجل عند حده ، وليذكّره بأن نصيبه من ثمن الجوهرة هو الثلث ، بحكم الشرط الذى كان بيننا .

واندفع الحارس فى ثورة حمقاء يقول :

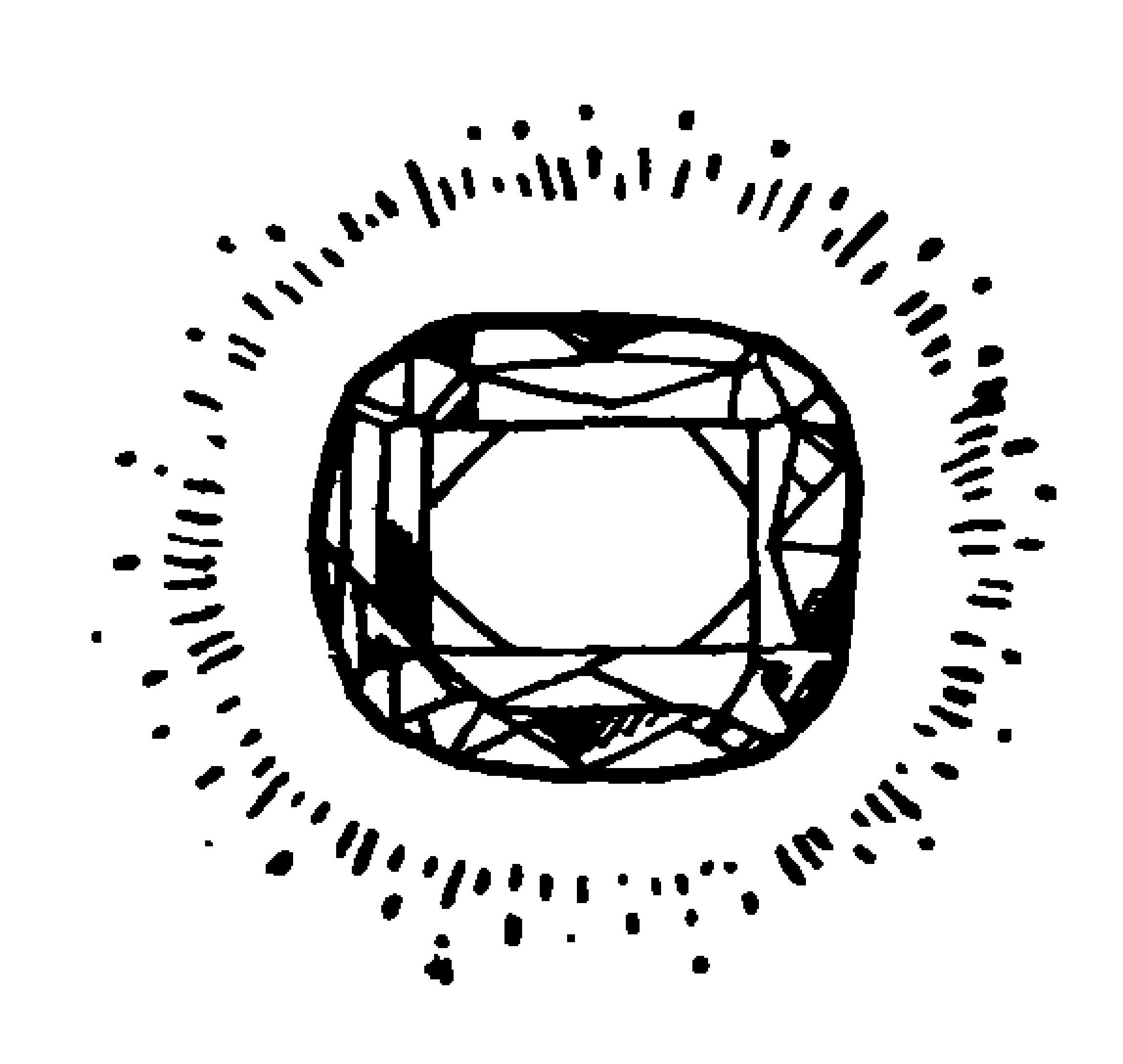
ــ « أيها الأحمقان ! ألستما إلزيفير بلوك وصاحبه الغلام جون ؟ لقد جعلت الحكومة خمسين جنيهاً لمن يقبض عليك يا إلزيفير ؛ وعشرين لمن يقبض على هذا الغلام ! أنتما الآن حبيسان عندى ، ولن أدعكما حتى تقع الماسة سليمة كاملة فى يدى ! »

وأخرج الحارس مسدسه وأطلق منه رصاصة على إلزيفير ، ولكنها لحسن الحظ أخطأته بقليل ، وأصابت جانباً من البئر . واندفع الحارس فى فورة الجنون وقد طوّق عنق إلزيفير بأصابعه يريد أن يخنُقه . . ودار صراع عنيف بين الاثنين ، فقفزت من الدلو ، ولكن إلزيفير لم يكن بحاجة إلى مساعدتى ! فقد كان يدافع حقّاً عن حياته ، وكأنّ قوةً خارقةً تجمعت لديه ، فألقى الحارس بيديه ورماه بقوة حيث سقط فى فتحة البئر

ورأسه إلى أسفل . . . وحاولت أن أنقذه فلم تعلق يدى إلا بسلسلة المفاتيح المعلقة بجانبه . . وهوى إلى قاع البئر حيث سمعنا صوت جسمه يرتطم بالماء ، ثم ساد بعد ذلك السكون . . .

وأسرع إلزيفير إلى الدلو فنزل فيها ، وسألنى أن أدير الحبل له لينقذه من الأعماق ، وبعد لحظات نادى علىّ لأجذب الدلو ، فلما صعد عرفتُ أن الحارس قد فارق الحياة . . وهنا قلت لإلزيفير :

— « دعنا نرمى الماسة ثانية فى البئر ، فقد جلبتْ علينا النحس ومَوْتَ الرجل » ، ولكن إلزيفير لم ترُقْ له الفكرةُ ، وعدنا إلى حانة بوجل ، ولم نخبر أحداً بما حدث . وقلنا لصاحب الحانة إننا يجب أن نترك هذه الأرض لبعض الشئون . فدلّـنا على سفينة هولندية ، فى طريق إبحارها إلى هولندة . . .





١٢

لقاء سعيد

سأقول لك لماذا اخترنا هولندة بالذات للرحيل إليها ، لقد اشتهرت بأنها سوق عالمية طيبة لبيع الماس من جهة . ولأن إلزيفير كان يتكلم بعض الهولندية من جهة أخرى . .

وسمعنا عن رجل يتَّجر فى بيع الماس وشرائه ، اسمُه « ألدوبراند » فى مدينة لاهاى . فقصدنا إليه فى منزله الصغير الأبيض المنحرف قليلا عن الطريق . . . واستقبلنا الرجلُ فى جسمه الضئيل وفى سنه التى كانت تبلغ السبعين . . . وأنبأنا الرجل من أول الأمر أنه لا يشترى إلا أثمن الجواهر ، وأن الماس غيرَ الجيد ليس له إليه من سبيل !

وصعدنا إلى حجرة فى الطابق الأعلى ليتبين ألدو براند حقيقة الماسة فى ضوئها ، وكانت الحجرةُ تطلّ على الحديقة حيث لمحنا من نافذتها الشمس وهى تميل إلى المغيب .

والحق أننى لم أرْتحْ إلى التاجر ولا إلى نظراته ، ولا إلى طريقته فى الحديث . . ولما سأل عن اسمى والمكان الذى أتيت منه أجبته فى صراحة لم يرض بها الزيفير ، فوكزَنى وكْزةً عرفتُ منها كل شىء !

وزاد التاجر فسألنى عن الطريقة التى حصلتُ بها على الماسة ، وهنا لم يطقْ الزيفير صبراً فقال محتدًّا :

ـ « لم نجئْ هنا لمناقشة أو استجواب . . . ولكن لنعرف إذا ما كنت ترغب فى شراء الماسة ، وما الثمن الذى تقدمه لذلك ، وكفى أن نقول لك إننا بحارة إنجليز ، وإن هذه الماسة هى ملكٌ خاص بنا » .

و بدأ التاجر يشككنا فى قيمة الماسة وفى أصالتها ، وأخذ يختبرها أمامنا بسائل أخضر على حجر أسود . وهنا رأيت وجهه يتحجر كأنه قدّ من بعض الصخور . . .

وزعم التاجر أن الماسة من النوع الزجاجى الكاذب ، وأنها دقيقة الصنع إلى حد بعيد . وهنا اسودّت الدنيا فى وجهى . . وقلتُ فى نفسى : أكلّ هذه المخاطر والأهوال التى قاسيناها لنحصل فى نهاية المطاف على قطعة من الزجاج ؟ !



وقدَّمَ لنا التاجر ثمناً فيها بعض قطع من العملة الفضية ؛ فاستشاط إلزيفير غضباً ورمى الماسة من خلال النافذة . . وهنا رأيتُ الماسةَ وهى تسقط فى الحديقة قريباً من زهرة كبيرة حمراء . .

وُعدْتُ أنا وإلزيفير إلى الفندق الذى نزلنا به فى لاهاى ، وكان الصمت يجللنا طول الطريق . . ولكننى قطعتُ الصمت قائلا إن التاجر لم يقل لنا الحقيقة حول الجوهرة ، وإنها ماسة أصيلة لا زائفة ، وإننا يجب أن نعود لنبحث عنها فى أرض الحديقة . . .

وأبَى إلزيفير أن يستجيب لاقتراحى حتّى على افتراض أصالة الماسة وقيمتّها النادرة . . محاولا أن يثنينى عنها وعن التفكير فيها ، قائلا إننا سنكون أكثر سعادة بدونها مما لو حصلنا عليها ، ألم نشهد مقتل ماسكيو وحارس القلعة منذ جعلنا الحصول على الجوهرة شغلاً لنا ؟

وأخيراً رضى إلزيفير أن نعود معاً لنبحث عنها قرب الزهرة الحمراء . . وما كان أكثرَ دَهْشَتى حين لم أجدها هناك . . . وأيقنتُ أن ألدو براند قد نزل بعد أن غادرناه إلى الحديقة والتقطها من مكانها . . .

ونظرت إلى غرفة التاجر فرأيت ضوءاً يبدو من النافذة . وتسلَّقتُ الجدار واسترقتُ النَّظرَ من الشبَّاك فرأيت التاجر جالساً أمام منضدة والماسة مستقرةٌ بين يديه ، وتحت عينيه . . وكانت فى بريقها وحجمها وصفائها تكْسف ما حولها من جواهرَ وماسات .. وخيل إلىَّ أنها تخاطبنى

قائلة : ألستُ ملكةَ الماس فى العالم كلّه ؟ ألستُ جوهرتك الغالية ؟ ألا تستردنى ثانية إليك ؟ !

وحاول إلزيڤير أن يصرفنى عن النافذة بل عن المكان كله ، ولكننى انزلقت إلى داخل الغرفة فجأة ، فما كان من التاجر الذى دَهمَتْه المفاجأة إلا أن وقف يصيح : لصوص ! لصوص !

وجاء ستة من الخدم فقبضوا علىّ وأنا قابض على الماسة فى يدى ، وهكذا وقعت أنا وإلزيڤير فى قبضة البوليس . . .

وبقيت فى السجن أياماً ، حيث كانت يداى مكبلتين بالحديد ، وحملت على جبينى علامة السجن حيث وسمها السجانون بميسم ساخن ، وكانت هذه السمة عبارة عن حرف Y الذى هو الحرف الأول من قرية « يوميجن » التى يقع فيها السجن .

وعجبت من سخرية الأقدار التى طبعتْ وجهى هنا بطابع أسرة موهون ! ولبثت فى السجن عشر سنين ، تمر بى الأيام رتيبةً مملة متشابهةً ، لا عمل لنا إلا أن نأكل ، وننام ، ونعيش فى عالم النسيان . . .

وذات يوم جاء الحرّاسُ لينقلونا من السجن إلى ثغر لاهاى ، لنشتغل فى جزر الهند الشرقية عمالا فى المستعمرات الهولندية هناك . وهنا فقدت الأمل فى العودة إلى مون فليت ، وإلى جريس ، بعد أن حكمَ القدرُ علينا بهذا المصير البعيد .

ورأيت معى فى جماعة المسجونين المرسلين إلى الشرق البعيد إلزيڤير وقد وخطَ الشيبُ رأسَـهُ ، وهنا تذكرتهُ وهو شاب مكتمل الشباب فى كهف يوسف . . . وتذكرتُ تلك الليلة من ليالى الصيف فى حديقة قصر ماسكيو حيث نصحتنى جريس فى صوتها الرقيق الناعم بأن لا أشغل نفسى بالماسة التى قد تجلب لى نحساً ليس إلى دفعه من سبيل . .

وركبنا – نحن المسجونين – السفينة التى ستحملنا إلى ما وراء الهند . . وفرحت باستنشاق نسيم البحر ، ولكن الحزن غلبنى لاضطرارى إلى مفارقة أوربا كلها من غير أن أتزود بنظرة من قرية مون فليت . . .

وما هما إلا يومان من ركوبنا البحر حتى هبت عاصفة شديدة ، وغالبتنا أمواج البحر الهائج ، وطوحت بنا بعيداً عن الطريق المرسوم .

وبدا لنا من خلال الظلام والريح والمطر المنهمر شبحُ أرض تقترب منا ، وكان شكلها مألوفاً لدينا ومنقوشاً على ذكرياتنا ، وإذا بإلزيڤير يصيح بى واضعاً يده على ذراعى !

– « انظر يا چون ! أليست هذه الأمواج البيضاء التى تتكسر على الشاطئ هناك هى أمواج خليج مون فليت ؟ »

وكانت العاصفة تنذرنا بخطر مُحْدق بنا عما قريب ، ولكن إلزيڤير الذى كان عالماً بخطورة الموقف همس فى أذنى قائلاً :

– « إن هناك عناية إلهيّة قادتنا قريباً من أرض الوطن ثانية ، وقد

نموت بعد ساعة فى هذه العاصفة ، ولكننى أوثر الموت فى خليج مون فليت على العودة إلى السجن . فلنكافح معاً فى سبيل الحياة ! »

وحاول بقيةُ المسجونين أن يركبوا قوارب النجاة ، ولكن إلزيڤير صاح فيهم محذراً من خطر ركوبها فى هذا الخليج ، ونصحهم بالتزام السفينة حتى تحملهم الأمواج إلى الشاطئ . . . ولكن لم يبق على ظهر السفينة أحدٌ غيرى وغير إلزيڤير . .

وفى خلال الظلام والمطر والهول لفتَ إلزيڤير نظرى إلى نقطة مضيئة فى وسط هذه الدياجى ، قائلا : هذا ضوء ماسكيو . .

ولم يكن هذا الضوء إلا ضوء تلك الشمعة التى وَعدَتْنى جريس بأن تضعها دائماً فى شبَّاك غرفتها ، لتهدى التائهين فى البحار ، ولتهدينى إذا ما ركبت البحر ، ولتكون علامةً على أنها لا تزال تذكرنى حتى أعود ثانية إلى مون فليت . . .

وأيقنتُ أنها هناك تنتظر عودتى ، ولكن أين السبيل إليها ودون ذلك عواصفُ مهلكة تحمل الموت الزُّؤام ؟ وأخذ هدير الأمواج يختلط بصفير الرياح ، فيزيد ذلك فى يأسى من الخلاص . .

وتحطمت سفينتنا إلى قطع متناثرة ، فألقيتُ بنفسى وألقى إلزيڤير بنفسه فى خلال الموجة المزبدة ، حتى ألقى بنا الموجُ على مقربة من الشاطئ حيث امتدت هناك أيدى بعض الرجال لإخراجنا . .

ولكننى بعد ذلك لم أدر ما حدث لى ، فقد ذهبتُ فى نوم عميق ، وصحوت فإذا بى فى حانة « هواى نوت » التى لم تكن فُتحتْ منذ أن غادرها إلزيفير ليلة المزايدة على استئجارها ، حيث ذابت الشمعة إلى نهاية الدبوس . . . ولم يعرف أحد ممن فى الحانة من أنا ، فقد غيَّرت الحوادث والآلام والسجن من ملامحى ، ولكننى عرفت من أحدهم وجه راتسى القديم !

وعرفتُ منه أن رفيقى فى العاصفة لم يستطع الخروج إلى الشاطئ معى بعد أن دفعنى إليه بيديه القويتين . . . بل ابتلعته الأمواج التى لا ترحم . . وحزن راتسى و بقية الرجال حينما علموا أن رفيقى فى أهوال العاصفة كان إلزيفير . . .

و بعد يومين قذف البحر جثة إلزيفير على الساحل ، حيث التقطها الرجالُ ووضعوها على المائدة نفسها التى كان مسجًّى عليها من زمن بعيد جثمانُ ولده الصريع « داڤيد » . . .

وتركنى راتسى وحيداً أمام جثمان صديقى الكبير إلزيفير . . وكانت قاعة الحانة لا تزال كآخر عهدنا بها ليلة المزاد . . وكان التراب يغطى كل شىء فيها . . كما كان الشمع لا يزال متجمداً على سطح المائدة ، حيث كانت الشمعة تذوب وتتساقط عبراتها فى تلك الليلة . . .

وفجأة أحسستُ يداً رقيقة ، ولمسةً رفيقة تمسُّ ذراعى ، فرفعت



الذى كان مطرقاً وإذا شابة جميلة طويلة القوام ، تخاطبنى فى صوت حنون :

— « أنسيتنى يا چون ؟ ألم ترَ الضوء فى النافذة ؟ ألم تعلم أن صديقة مخلصة كانت بانتظارك هناك ؟ »

ولم تكن هذه غير جريس .. هى بقلبها الحارّ ، ونفسها الطيبة ، ووجهها الجذاب ...

وأجبتها والحب يكاد يعقد لسانى :

— « أنا لم أنس شيئاً يا جريس ! ولكننى رجل فقير حُكمَ علىّ بالسجن فى هولندة ، فكيف أتطلع إلى عظيمة غنية مثلك ؟ »

وردّت علىّ قائلة :

— « لا تحدثنى عن الغنى يا چون ! فإن الجواهر وأغنى الأموال لا تخلقُ الرجال ... ولقد عدتَ يا چون إلى مون فليت أغنى كثيراً مما خرجتَ منها ... أغنى بالمروءة والشرف »

* * *

بقى شىء لم أقله لك يا قارئى العزيز حول الماسة الثمينة ، وأخشى أن تكون نسيتها أو أنستك إياها الحوادث الجسامُ التى مرت بى ...

لقد مات التاجر الهولندى « ألدوبراند » فى لاهاى ، ولم يترك له وارثاً ، وأحسّ الرجل قبيل أن يموت أنه اختلس الماسة الثمينة منى بلا مقابل.

وأراد أن يكفر عن خطيئته ، فأوصى لى بكل ما يملك من ثروة واسعة ، وأموال طائلة ، بما فيها ثمنُ الماسة . وكان قد عرف حقيقة اسمى وعنوانى فى إنجلترة ، يوم أن عرضتُ عليه الجوهرةَ مع إلزيفير . . .

وفى يوم من الأيام جاءنى خطاب مسجل من « الهرروستان » المحامى فى لاهاى يقرر لى هذه الوصية .

وهكذا عاد لى ثمن الماسة الثمينة التى أتعبتُ نفسى طويلاً فى العثور عليها .

ولكن زوجتى جريس ، وأنا معها ، خصصنا المال الذى جاء منها للفقراء . . .

وعشنا سعداءَ ببقية الوصية التى تركها لنا « آلدوبراند » ، مع طفلينا الحبيبين الصغيرين : چون ، وإلزيفير ، وطفلتنا الصغيرة الجميلة جريس ، التى كانت تشبه أمها إلى حد كبير . . .

فهرس

رقم الإيداع		٢٦٧٢ / ١٩٩٤
الترقيم الدولى	977 – 02 – 4365 – 5	ISBN

٧ / ٩٣ / ١٢٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)